السنة التاسعة عشرة العدد ١٢ كانون الاول ١٩٢١

المشرق

التذكار المئوي الرابع

لوفاة لاون العاشر . لمناداة لوثاروس بالاصلاح

ولارتداد اغناطيوس دي لويولا

في مثل هذه السنة حدثت في اوربَّة ثلث وقائع كان لحدوثها في التاريخ صدًى لا يزال يُسمع رنينهُ الى يومنا هذا. نريد بها وفاة لاون العاشر الذي اليه نُسب القرن السادس عشر ونهضتهُ الادبيَّة. ثم عصيان الراهب الاوغسطيني لوثاروس الذي مزَّق البراءة البابويَّة القاضية في شَذْبهِ وحرمهِ . ثمَّ ارتداد اغناطيوس دي لويولا الى الله وتخصيص نفسهِ الى خدمتهِ تعالى قبل انشائهِ الرهبانيَّة اليسوعيَّة . تلك هي الامور الجليلة التي احببنا ان نلخّص ذكرها في هذه الصفحات

١ وفاة لاون العاشر

انطفأ هذا السراج الوهّاج في غرَّة كانون الاوَّل سنة ١٥٢١ في عاصمة مملكته رومية وهو في عزّ كهولته لا يتجاوز عمرهُ ستًّا واربعين سنة بعد ان أنار بضيائهِ اللامعة العالم الكاثوليكي على السدَّة البطرسيَّة ثماني سنين وبضعة اشهر فقط . فكان خبر وفاتهِ كضربة قاضية أُصيب بها اهل رومية بل دهمت سائر ايطالية والكنيسة الجامعة وعالم الآداب معاً

كان اوَّل سطوع هذا الكوكب المنير في فلورنسة حاضرة بلاد توسكانة في ايطالية وذلك في ١١ كانون الاوَّل ١٤٧٥ من أُسرة طبَّقت شهرتُها المعمور من آل مديشيس

انصار الفنون الجميلة وسائر المعارف البشريَّة فكانهُ اقتبس من اسرتهِ ومن وطنهِ نور مجدهما الاثيل

عُني ابوه امير فلورنسة لوران دي مديشيس الملقَّب بالفخيم (Laurent le Magnifique) بتخريجهِ في كل آداب عصرهِ فاختار لهُ اوسع الاساتذة علماً واثقبهم عقلاً كبوليسيان وخلقنديل ومرسيل فيسان (Marsile Ficin) وبيك دي لا ميرَندول فنشأ جان مزداناً بهمَّتهم بالعلوم والآداب مشاراً اليهِ بالبنان لذكاء عقلهِ ووفرة معارفهِ وحسن سيرتهِ مع غضاضة سنّهِ فرقّاهُ البابا اينوشنسيوس الثامن الى رتبة كردينال وهو في الثانية عشرة من عمرهِ اعترافاً بفضل الولد وشكراً لوالدهِ إباً اداهُ للكنيسة والدين من الخدم الجليلة. لكنَّهُ فرض على الولد قبل ان يتَّشح بالبزة الكردينالية الرسميَّة ان يواصل دروسهُ ويضيف الى علومهِ المدنيَّة درس العلوم الدينيَّة في كليَّة بيزة مدَّة ثلث سنوات ففعل ونال فيها كلّها قصبة السبق مع شهادات معلّميهِ الناطقة بنجاحهِ ورقيهِ. فلبس الارجوان في مدخل شبابهِ واغرب عن اقتدارهِ بما القاهُ منذ ذاك الحين من الخطب على المنابر. فاهتزّت مدينة فلورنسة طرباً لدى نظرها ابن اميرها منظوماً في سلك امراء الكنيسة واقامت لتهنئتهِ مواسم فاخرة وصفها الكتبة وصفاً شائقاً وتنبأوا لهُ بالجلوس يوماً على عرش البابويَّة

لم يفرح الامير لوران زمناً طويلاً بارتقاء ابنهِ الى منصب الكرادلة فانَّ الموت عاجلهُ فودَّع الحياة مزوَّداً باسرار الدين معلناً بشديد تعلّقهِ بايمانهِ (١٤٩٢). وكان آخر كلامهِ وصاةً لابنهِ الكردينال مملوءةً حناناً وحكمةً يرشدهُ فيها الى كلِّ واجباتهِ الدينيَّة والدنيويَّة ويحذّرهُ مما يحيد بهِ عن الصلاح.

كان موت لوران مديشيس داعياً لانقلاب الامور على ذريّتهِ فان بعض اعدائهِ وفي مقدّمتهم راهبٌ متهتّكٌ يدعى سڤانارول (Savanarole) هيَّجوا عليهم الشعب فنسي اياديهم اليهِ وهجم على املاكهم ونهب اموالهم وبخس حقوقهم واضطرَّهم الى الفرار من وطنهم

وكاد الكردينال جان مديشيس يهلك في هذه المشاغب لكنَّهُ نجا بنعمةٍ خاصَّة من الله والتجأ الى بلاط بعض امراء ايطالية اصدقاء لسرتهِ الجليلة فكان لهُ المنفى نِعم المدرسة لترويض اخلاقهِ واكتساب الفضائل الخاصَّة بالرجال المحنَّكين ذوي

العود المُعجَم . وبعد ان قضى عند مضيفيهِ نحو سنتين احبَّ ان يتجوَّل في انحاء اوربَّة ليزور عظماءها ويتفقد ما فيها من الآثار والفنون الجميلة . واذ كان لمديشيس شأنٌ في كلّ اقطارها وجد الكردينال حيثما سار اطيب مثوى وارحب منزل فطاف في مدن النمسة والمانية وهولندة وفرنسة يتفقَّد ما في كلّ منها من المحاسن والمتاحف والمخطوطات العزيزة الوجود ثمَّ ابحر الى رومية فأقام في احد قصورها معتزلًا الامور السياسيَّة ومنقطعاً الى الدرس والمطالعة وجَمع التُحَف الفنيَّة لاسيَّما المخطوطات القديمة التي كان انتهبها الفلورنتيُّون من مكتبة والدهِ فابتاعها وزيَّن بها دارهُ الكرديناليَّة .
فما لبث ان توارد عليهِ رجال العلم ومحبُّو الآداب فكان يأنس بهم ويدعوهم الى مائدتهِ فاضحى قصرهُ نادياً علمياً أحيا بهِ ذكر تزما جدهِ الشهير ولوران الفخيم والدهِ حتَّى عادت فلورنسة فحسدت رومية لازدهار الفنون فيها باحد ابنائها الذين كندت نعمتهم . ومذ ذاك الحين تألَّف فيها حزبٌ لردّ السلطة الى آل مديشيس بمساعي بعض زعمائها

قضى الكردينال مديشيس في رومية خمس عشرة سنة حائداً عن السياسة ملازماً خدمة الكنيسة والآداب مدَّة ملك البابا اسكندر السادس وخلفهِ يوليوس الثاني وهو فائز بالحظوى لديهما لسعة فهمهِ وشهرة اسرتهِ ولأسفهما على آلهِ لِما حلَّ بهم من المصائب على خلاف لستحقاقهم

وكان يوليوس الثاني سليل أُسرةٍ معادية لاسرة مديشيس الَّا انَّهُ عدل عن صوت اللحم والدم وقدَّر الكردينال جان مديشيس حقَّ قدرهِ . وفي السنة ١٥١١ عهد اليهِ امر بعثةٍ على مدينة بولونية التي كانت رفعت لواء العصيان على الحبر الاعظم فسار اليها بقلبٍ اصمَّ من الجلمود وكاد يكسر شوكتها لولا انَّ اهلها التجأوا الى لويس الثاني عشر ملك فرنسة الذي كان اذ ذاك يحاول بسط سلطتهِ على ايطالية الشماليَّة فحدثت وقتئذٍ وقائع تشيب لها الاطفال بين جنود البابا وحلفائهِ الاسبانيّين وبين الفرنسويين والمنتمين اليهم من الالمان وكان الظفر في اوَّل الامر حليف ملك فرنسة رغماً عمَّا ابداهُ البابويُّون من البسالة والحماس تحت قيادة الكردينال دي مديشيس الذي كان في مقدَّمة الجيش بلا درع ولا سيفٍ ينفخ في القلوب روح النخوة والحميَّة الى ان وقع اسيراً في ايدي الفرنسويين . الَّا انَّ امور الحرب ما لبثت ان دار دولابها فتُقُل في

حومة الوغى غستون دي فوا (G. de Foix) بطل عصرهِ المغوار ورأى الفرنسويون انَّ انتصارهم لا يجديهم نفعاً فعادوا الى اوطانهم والكردينال دي مديشيس في أسرهم لكنَّهُ نجا من ايديهم بنوع عجيب وعاد الى رومية فصار لهُ فيها استقبال الجندي الباسل والبد الامين وعُظِّم في اعين جميع اهل ايطالية حتَّى انَّ العُصاة عادوا بواسطتهِ الى الطاعة وفتح كثيرون من الامراء ابواب مدنهم للجيوش البابويَّة

وكانت فلورنسة من جملة المدن التي أحنقت عليها الكرسي الرسولي لميل سودريني صاحبها الى الفرنسويين فانتهز انصار أُسرة مديشيس هذه الفرصة فزحفوا عليها ودخلوها عنوةً وأسروا سودريني واخذوا يعملون السيف في اهلها لولا ان الكردينال جان دي مديشيس توسّط بين المدينة وفاتحيها ونال لمواطنيهِ الامان. فعادت الاسرة المديشيَّة الى عزّها السابق وملك على فلورنسة جوليان اخو الكردينال وخلفهُ من بعدهِ آلهُ الى اواخر القرن السابع عشر

امَّا الكردينال جان فانتدبهُ الحبر الاعظم لمهامّ جديدة وجعلهُ حاكماً على مدينة بيروزة فجمع في تدبيرها بين الحزم واللين واكتسب رضى الجميع

*

في ٢١ شباط سنة ١٩١٣ انتقل البابا يوليوس الثاني الى جوار ربّهِ بعد جلوسهِ على كرسيّ الخلافة البطرسيَّة احدى عشرة سنة عزّز فيها سلطان الاحبار الرومانيين وانقذ ايطالية وطنهُ من نير الطامعين في ملكها وجعل على مفرق الكنيسة الكاثوليكيَّة تاجاً من البهاء زادها حسناً في اعين العالم باجمعهِ

اسرع الكرادلة فاجتمعوا لانتخاب خلفهِ فما مرَّت عليهم أيام قليلة حتَّى وقع الاختيار على جان مديشيس في ١١ آذار سنة ١٥١٣ حيث وجدوهُ كفؤاً لتدبير الكنيسة وجديراً بالذبّ عن حقوقها وقهر اعدائها وهو اذ ذاك شمَّاس انجيليّ فقط فسيم في ١٥ آذار كاهناً ثم اسقفاً في ١٧ منهُ وفي التاسع عشر جرت حفلة تتويجهِ برونق عظيم وتباشر بهِ عالم الدنيا والدين. واتخذ لهُ اسماً شرَّفهُ قبلهُ تسعة من الباباوات اولهم واعظمهم القديس لاون الكبير (٤٤٠–٤٦١) الذي خلّص رومية مرَّتين من ايدي البرابرة الهونيين والفنداليين وملكَيها أتيلا وجنسريك. وقد شرَّف ايضاً هذا الاسم الثمانية الذين اتسموا بهِ لكنَّ لاون العاشر فاق عليهم اجمعهِ كلّ

الصفات المتفرِّقة فيهم فاستحقَّ كبعض نوابغ الدنيا ان يُزدان عصرهُ باسمِهِ الكريم
اشتهر لاون العاشر من ثلثة وجوه كرجل سياسة وكرجل دين ورجل ادب
﴿ رجل السياسة ﴾ تبرأ ابن مديشين السدَّة البطرسيَّة في زمن كانت ثلث دول كبيرة تطمع ببصرها الى ايطالية لتقتسم اصقاعها وهي المانية وفرنسة واسبانية لحقوق صادقة او فريَّة تدَّعيها لادراك امانيها . هذا فضلًا عن الجمهوريَّات الايطاليَّة الصغرى التي كانت تتوي توسيع حدودها وتمس حقوق الكنيسة الرومانيَّة . فكانت تلك المطامع تجعل موقف الحبر الروماني حرجًا محفوفًا بالمخاطر . الَّا انَّ لاون العاشر عرف بحسن تظرهِ وحنكته بالامور السياسيَّة كيف يسلك مع الدول ليفوز باستقلال ايطالية . فانَّهُ تصدَّى لملك فرنسة لويس الثاني عشر واضطرَّهُ بمساعدة مكسيمليان الاوَّل ملك النمسة وعَقْد الجيوش السويسريَّة الى ان يجوز ميلانو ومقاطعاتها . ثمَّ خاف البابا من محالفة كادت تُعقَد بين النمسة وفرنسة واسبانية وتتهدَّد ايطالية فتمكَّن بحذاقته وحسن تدبيره ان يتمها ويصون موطنهُ والكرسي الرسولي معًا من هذه المخاطر الجديدة

ثمَّ قام في فرنسة بعد لويس الثاني عشر فرنسيس الاوَّل ابن اخيه (١٥١٥) فشبّت نيران جديدة تخوَّف منها لاون العاشر وجعلت ايطالية تحت رحمة اعدائها فسعى البابا باطناً . سعيها لكنَّ فرنسيس الاول قهر كلَّ القوات المتحالفة لردّ غاراته وبسط سلطته على ميلانو وتوابعها . فلم يقتنط البابا من عزمهِ بل اجتمع في بولونية بملك فرنسة وعقد معهُ معاهدة خوَّلت الحبر الاعظم سلطة فعليَّة ونفوذًا اعظم في رعاية الشعوب الكاثوليكيَّة لاسيا في ايطالية وفرنسة

ولمَّا عاد لاون الى رومية حاول تمكين سلطانه في عدَّة مدن ايطاليَّة كان امراؤها يتصرَّفون فيها على هواهم ولا يكترثون لاوامره ونواهيهِ . فانتزع مدن اوربينو وبيروزه وبارمة من ايدي طغاتها وسلَّمها لعمَّال امناء . واستنفد الوسع في بسط السلم والامان في انحاء البلاد

ثمَّ خلف في المانية مكسيمليان حفيدهُ كرلوس الخامس سنة ١٥١٩ وقد كان سابقًا ورث فرديناند الكاثوليكي سنة ١٥١٦ بملكه على اسبانية فجمع على رأسه تاجَي المانية واسبانية . وما عتَّم ان وقع بينهُ وبين فرنسيس الاوَّل منازعات وحروب

دامت ثلثين سنةً وابتدأت على عهد لاون العاشر فاصابهُ منهما هموم كدَّرت صفاء حياته لطموح بصر كليهما الى ايطالية هذا الى جنوبها وذاك الى شمالها وهما يطلبان جميعاً من الحبر الاعظم نعمة الامبراطورية الرومانيَّة وامتيازاتها. فكان البابا يضطر حيناً الى ممالأة الواحد وحيناً الى مجاملة الآخر لئلَّا ترجح كفَّة ميزان احدهما فيصبح خطراً على البلاد وعلى الممالك البابويَّة. على انَّهُ في آخر الامر نفر من عُنجهيَّة ملك فرنسة فانحاز الى كرلوس وفي اثناء ذلك مات بعد ظفر حلفائهِ

وكانت غاية ما يقصدهُ لاون العاشر من حروبهِ ان يمتّع بلادهُ بالسلم والراحة ويكسر نير الاجانب فيجعل ايطالية مستقلَّة بامورها قويَّة باتّحاد عواهلها مع اكبر ملوكها وحُماتها اعني الحبر الروماني

وكانت هذه الغاية القريبة يوجّهها لاون الى غاية اسمى واعظم وهي ان يجمع كلَّ قوى الدول المسيحيَّة ويربطها بروابط محكمة لردّ غارات الاتراك الذين كانوا يتقدَّمون كلَّ يوم الى نواحي الدول النصرانيَّة ويتهدَّدونها من كلّ صوب بعد ان فتح سليم الاوَّل بلاد الشام ومصر ورودس وتقرَّبت جيوشهم من المجر والنمسة. وكأنَّ الملوك الاوربيّين ساهون عن ذاك الخطر المُجحف على خلاف الاحبار الرومانيين الذين كان جلُّ مساعيهم ايقاف العثمانيين عند حدودهم لا بل كسر شوكتهم وثلّ عرشهم. ومن يطَّلع على كتابات لاون العاشر الى كافَّة الملوك والامراء في المانية وانكلترة واسبانية وفرنسة والمجر وسويسرة والبندقيَّة وجنوة يأخذهُ الاندهاش لصوت ذاك النفير الذي يبعث ملوك النصرانيَّة من جمودهم ويوقظهم من سُبَاتهم. وقد بلغ بهِ حبُّهُ لخلاص النصرانيَّة الى انهُ دعا اهل رومية الى طوافٍ ديني مشى هو فيهِ حافياً لينال من الله رحمتهُ وقهر اعداء كنيستهِ وكذا فعل بعدهُ خلفاؤهُ الى ان وجد نداؤهم صدًى في قلوب الملوك فاتّحدوا مع الكرسي الرسولي وانقذوا اوربَّة من همجيَّة بني عثمان بانتصاراتهم عليهم في فينَّة وبودابست وليبانت

﴿ رجل الدين ﴾ لم تكن امور السياسة لتصرف نظر لاون العاشر عن شؤون الدين بل قل انهُ لم يقصد من سياستهِ الَّا الدفاع عن حياض الدين اذ انَّهُ رأى خطراً كبيراً على استقلال الكنيسة الروحي لو فقدت استقلالها الزمني كما ترى في البطريركيَّات الشرقيَّة التي اصبحت آلةً في ايدي الملوك والسلاطين بفقد حريَّتها

ولنا اولًا عدَّة شواهد تثبت ما طُبع عليه لاون العاشر من روح التقى والحماس في الدين . فهذا مجموع رسائله البابويّة التي تنطق كلها بتفانيه في سبيل الدين وينقد كلَّ سطر منها اكاذيب البروتستانت في المانية واشاعاتهم في حقّهِ

ومن الخدم الجليلة التي اداها لاون العاشر للكنيسة جمعاء مواصلتهُ لاعمال المجمع المسكوني السابع عشر وهو الخامس من مجامع الكاتدرا اللاترانيَّة كان باشر به سلفهُ يوليوس الثاني سنة ١٥١٢ فعُقدت بهمَّة لاون عدَّة جلسات وُضعت فيها قوانين حسنة للإصلاح الحقيقي لآداب المؤمنين والاكليروس وبها بطل سلفاً مدَّعى لوثاروس لاصلاحه الموهوم. وفي هذا المجمع قُطع دابر الانشقاق الذي احدثهُ بعض الكرادلة في بيزة فتابوا الى الله وجاؤوا خاضعين لراعي الكنيسة . وفيه ايضاً أُثبت رسمياً مشروع خوري كان انشأهُ راهب فرنسيسي يُدعى برنردن ليقرض العمَلة والفقراء مالًا في ضيقتهم بدلًا من رهن يرهنونهُ ريثما يردُّون المال فيسترجعون المرهون بجعالة زهيدة يؤدونها وبذلك ينجون من ربى اليهود الفاحش البالغ ٢٠ الى ٥٠ بالمئة. وكان ختام هذا المجمع في آذار سنة ١٥١٧ بعد اتفاق الآباء على وضع بعض الرسوم لمحاربة الاتراك وتقييد الطباعة بقوانين تكبح جماحها وتحصرها ضمن حدود الأدب

والى هذا البابا يعود الفضل بانشائه في رومية ملاجئ للفتيات التائبات ومطاعم مجّانيّة لفقراء المدينة. ومن مآثره الدينيَّة اهتمامهُ العظيم بالرتب الدينيَّة لتُتمّ على منوال اهل بجلاله تعالى لاسيَّا رُتب جمعة الآلام التي كان يتراحم الزوَّار من كل الانحاء لحضورها. وكذلك كان من السُّعاة في تنظيم الموسيقى الدينيَّة والحانها الشجيَّة. كما انهُ انهض الدروس اللاهوتيَّة في كليَّة رومية المعروفة بمدرسة الحكمة (la Sapi-ence) فاختار لها ثلاثة من اساطين ذلك العلم الجليل ورقّى بعض اللاهوتيين الى رتبة الكرادلة واعدَّ منذ ذاك الحين اختصاصيين اشتهروا بعدئذٍ في المجمع التريدنتيني

واظهر لاون عناية خاصة في نشر الدين في البلاد الاميركيَّة والجزائر المكتشفة حديثاً في العالم الجديد بين شعوب تلك المجاهل السحيقة . ولم ينسَ كنائسنا الشرقيَّة كما يلوح من براءاته الاحدى عشرة المرسلة لبطاركة الموارنة ولساقفتهم وشعبهم

ولا يسعنا ان نسكت عن نشاطه العجيب في تشييد كنيسة مار بطرس التي كان

باشر ببنائها اسلافهُ فكان لهُ في متابعة العمل سهمٌ عظيم كما تشهد عليهِ حتّى اليوم عدّة تحف تزين ذاك البناء المعدود بين عجائب المعمور

هذه بعض مآثر لاون العاشر في جانب الدين من شأنها ان تُفحم المتشدّقين من الشيع البروتستانيَّة الذين صوّروهُ في كتاباتهم كرجل فنونيّ عالميّ لا يكترث لخدمة الدين ولصوالح الكنيسة

﴿رجل الآداب﴾ قد اعتاد المعادون للكنيسة ان ينبزوا ذويها بالجهل ومناهضة العلوم . لعمري انَّ تلك دعوى باطلة يردُّها تاريخ الكنيسة من اوَّل ظهورها في العالم الى اليوم . وقد امتاز خصوصاً الاحبار الرومانيُّون بحفظ الآداب ورفع منارة العلوم في كلّ اجيالهم

على انَّ لاون العاشر قد لاح في سماء الكنيسة ككوكب درّي ونجم ساطع النور فاق سلفاءهُ بنشر لواء المعارف والفنون الجميلة . وقد سبق انهُ رضع منذ صباه فاويق العلوم وعشق الآداب ولم يزل متشبثاً باهدابها الى زمن رقيهِ الى منصب الخلافة البطرسيَّة . فلمَّا أُلقيت اليهِ مقاليد الكنيسة الجامعة رأى ان تعزيز المعارف احد واجباتهِ كتعزيزهِ للدين ليجريا في ميدان التمدُّن كفرسي رهان لا يفرق بينهما حاجز

واوَّل ما صنع لاون لنشر لواء العلوم انهُ دعا اليهِ مشاهير زمانهِ واقرَّهم في اصقاع رومية وجعل لهم رواتب واسعة تغنيهم عن هموم المعاش وكثيراً ما كان يدعوهم الى البلاط الفاتيكاني ويقضي معهم ساعات الفراغ ويعيّن لكلّ منهم ما يراهُ مناسباً لمعارفهِ

فتهافت الى رومية جمهور من العلماء والأُدباء والشعراء والصَّنَعة والمؤرخين فاصبحت بهم رومية كمنتدى العلوم جماء ومركز كلّ الفنون

ومن الادلَّة الناطقة بفضلهِ تنشيطهُ للطباعة التي كان الحبر الروماني بولس الثاني دعا اصحابها الى رومية منذ السنة ١٤٦٦ فجعلهم تحت حمايتهِ فصدرت من مطابعها كتب دينيَّة وادبيَّة لا يُحصَل عليها اليوم الَّا بشقّ النفس والمبالغ الطائلة . فوسَّع لاون نطاقها وعُني بامورها المادّيَّة والادبيَّة وجعلها تحت نظارة اليونانيّ الشهير جان لَسكاريس وجهَّزها بكل الادوات اللازمة وسعى باستحضار حروف عبرانيَّة وكلدانيَّة وسريانيَّة وما لبث بعد قليل أن اصدرت مطبوعات جديدة لقدماء كتبة

الرومان واليونان مع ترجمات عديدة للكتاب المقدّس من العهدين العتيق والحديث ولاسيّما المزامير والاناجيل

وممّا ساعد نشر العلوم والمعارف المكتبةُ الڤاتيكانيّة فانّ لاون اضاف اليها مخطوطات مكتبتهِ الخاصّة وابتاع لها كتباً عزيزة الوجود منها كتب شرقيّة عربيّة وسريانيّة وعبرانيّة وارسل فيليبوس بيروألد (Ph. Béroalde) ناظرها وعدّة علماء الى انحاء ايطالية والمانية وفرنسة واليونان ليبحثوا عن المخطوطات في كنائسها واديرتها فيجلبوها ولو بأغلى الاثمان. قيل انهُ دفع ٥٠٠ دينار في تاريخ المؤرخ تاكيتوس وجدهُ في احد اديرة المانية. فلمّا طُبع اعلن البابا في مقدّمتهِ انّهُ يجازي جزاء عظيماً كلّ من يأتيهِ بكتاب قديم مخطوط. وكان الملوك والامراء يتقرّبون الى لاون بارسالهم لهُ مخطوطات نادرة كان يدعو العلماء الى نشرها على نفقتهِ

ووجد لاون العاشر الكليّة الرومانيّة خاملةً دون مدرسة باريس وميلانو وبولونية فاراد ان تجاريها جميعاً بل تكون في مقدّمتها في تعليم كلّ العلوم ليس الدينيّة فقط كاللاهوت والحقّ القانوني بل الدنيّة ايضاً كالفقه والطبّ والهيئة والرياضيّات والفلسفة والادب والبيان واللغة والتاريخ الطبيعي وكان يدفع بسخاء رواتب كلّ المعلمين الذين بلغ عددهم فوق المئة وكان للعلوم البيانيّة ١١ معلّماً و٢٠ للفقه و١٥ للطبّ والمفردات الطبيّة وهلمّ جرّاً. وقد صُنفت بهمّتهِ تواريخ شتّى كان لها احسن وقع في عالم العلم

وكان الحبر الاعظم مولعاً بالفنون الجميلة وقد مرَّ لنا ذكر اصلاحهِ الموسيقى الكنسيّة وكان يحبّ ان يسمع نغمات كبار الموسيقيين لترقى نفسهُ بها الى الله والامور العلويّة وكان يضرب بالقيثارة كداوُد الملك

وقد نبغ في ايأمهِ قومٌ من الشعراء الايطاليين كاريوستو وبمبو وڤيدا وجيبرتي وسنازار كان البابا يثيبهم على ما تنتجهُ قرائحهم من القصائد الرنّانة

وما قولنا بولع لاون العاشر بفنّ التصوير فكفاهُ فخراً ان رفائيل المصوّر الشهير كان بجيرتهِ فصوَّر لرومية تلك التصاوير التي تزين الى اليوم كنيسة مار بطرس والقصر الڤاتيكاني وبعض المتاحف والتي يُدفع في ثمن الواحدة منها الوف الالوف من الفرنكات وقد مات رفائيل في ربيع شبابهِ وعمرهُ ٣٧ سنة يوم جمعة الآلام سنة

١٥٢٠ فاثر موتهُ اعظم التأثير في الحبر الاعظم فبكى في جنازتهِ (اطلب صورتهُ)

ومثل رفائيل في نبوغهِ بالتصوير والنحت والهندسة معاصرهُ ميكال أنج الذي شرّف عصر لاون العاشر وأدّى للكنيسة من الخدم في هندسة كنيسة مار بطرس ونقشها وتصاويرها ما جعل اسمهُ منتظماً في سلك اكبر نوابغ العالم

ونضرب الصفح عن عشرات آخرين من المصوّرين والنحّاتين والمهندسين الذين كانوا يساعدون ذينك المعلّمين وكثيرون كانوا من تلامذتهما ولهم في رومية اعمال يشار اليها بالبنان

فبهولا، وغيرهم ايضاً كانت تلك النهضة الادبيّة التي جمّلت خلافة لاون العاشر وكانت داعياً لترقّي ايطالية عموماً ورومية خصوصاً. فانّ انتشار الصناعة كان داعياً لاتساع دائرة الاعمال التجاريّة والاقتصاديّة حتّى زاد عدد سكّان رومية وبلغ ضعف عددهِ السابق

٢ مناداة لوتاروس بالاصلاح الموهوم

ورد في العدد ٢٥٩٠ من النشرة الاسبوعيّة الاميركانيّة في تاريخ ٧ تموز السنة ١٩٢١ مقالة بهذا العنوان «ذكرى الاصلاح الانجيلي» افتتحها كاتبها بهذه الاسطر:

«في ١٨ من نيسان هذه السنة كان قد مرّ ٤٠٠ حول على وقوف المصلح الشهير مارتن لوثر طلباً للاصلاح الديني في وُرْمس ففي مثل ذلك اليوم يتذكّرهُ كلّ الذين نالوا الاصلاح بسببهِ وكل محبّي ذيّاك الاصلاح لأنّ ذلك العمل العظيم يُعدّ في التاريخ من اعظم الاعمال»

كنّا نودّ ان نضمّ صوتنا الى صوت النشرة الاسبوعيّة وكلّ المتمذهبين بمذهبها لنهنّئهم جميعاً بهذا الموسم السعيد بيد انّنا مهما تمعّنّا في ذكرى هذا الاصلاح وجدناهُ اسماً بلا جسم وقشرة دون لبّ . وهذا ما نحاول بيانهُ بفصل وجيز نعرضهُ على كلّ من لا تغشّي عيونهُ الاوهام فنقول:

اوّلًا انّ الله اذا رأى في كنيستهِ فساداً فاراد اصلاحهُ لا بُدّ ان يختار لها مُصلحاً فاضلًا باراً . ثانياً ينبغي على المصلح المذكور ان تكون تعاليمهُ صالحة موافقة للوحي وتعليم الآباء . ثالثاً ويلزم ان يأتي ذاك الاصلاح بالنتائج الحسنة والاثمار الجيّدة . والحال هذه الشروط الثلثة مفقودة لا اثر لها في الاصلاح البروتستاني

١ ليس لوثاروس مصلحاً صالحاً بل اثيماً

لو أجلنا النظر في سيرة لوثاروس المرويَّة من البروتستانت فضلاً عن الكاثوليك واجتبيناها من كتاباتهِ وجدناها بئس السيرة التي يخجل منها كلُّ رجل عاقل بارٍّ خائف من الله ۰وُلد مرتينوس لوثاروس في أيسلابن من اعمال المانية سنة ١٤٨٣ من عائلة حقيرة وبعد دروسهِ ترهَّب في رهبانيَّة الاوغسطينيّين سنة ١٥٠٨ ثم سيم كاهناً وأُرسل الى ورتمبرغ ليعلّم فيها الفلسفة وكانت في تلك المدَّة تساورهُ الوساوس فتشوّش عقلهُ وتبلبل راحة قلبه۰وفي السنة ١٥١٢ نال امتياز الملفنة في رهبانيَّتهِ فاخذ مذ ذاك الحين يُظهر استبداداً في تعليمهِ قلَّما يقنع لمشورة رؤسائهِ الداعين لهُ الى الخطَّة المثلى

وقد اظهر لوثاروس في ذاك الوقت ما طُبع عليهِ من شراسة الاخلاق لاسيَّما الكبرياء والغضب فانَّهُ جاهر بهما حتَّى لم يخجل بتقديسهما حيث قال: «دون الكبرياء لا يستطيع الانسان عملاً حسناً» ۰ وكان يعدّ غضبهُ الوحشيّ وسوء طباعهِ بمثل السيّد المسيح الذي غضب على الفرّيسيين ۰واخذ مذ ذاك الحين يرشق بسهام لسانهِ البذيّ كل من لم يوافقهُ على آرائهِ الغريبة فيلقّبهم بألقاب يستحي من لفظها الاوباش تجدها في تآليفهِ

وفي السنة ١٥١٦ اراد الحبر الاعظم لاون العاشر ان يشرّف بيعة الله بتمجيد هامة الرسل في رومية ومواصلة بناء كنيستهِ المشيّدة على ضريحهِ فأرسل الى انحاء اوربَّة واعظين ليدعوا المؤمنين الى التوبة ويمنحوهم غفرانات قانونيَّة طالبين منهم بعض الصدقات لمساعدة ذاك المشروع التقويّ ۰فامتعض لوثاروس غيظاً على الحبر الاعظم اذ انتدب لهذه الغاية الرهبان الدومنيكيين بدلاً من ذوي رهبانيَّتهِ وانتهز تلك الفرصة ليسلق ارباب الكنيسة والحبر الروماني نفسهُ بالشتائم مدَّعياً انَّهُ بذلك يتجاوز سلطتهُ ويبيع الروحيّات وينفي ما اعطى السيّد المسيح لرأس كنيستهِ من سلطان الحلّ والربط في السماء والارض وانَّ الغفرانات لا تمحو بذاتها الخطيئة وانَّما تسامح فقط بالعقاب الزمني الذي تستوجبهُ الخطيئة المغفورة من الله ۰والدليل على انَّ لوثاروس أقدمَ على خطبهِ الثوروية لغايات سافلة ما اقرَّ بهِ بعدئذٍ في كتبهِ بقولهِ: «إني اقسمُ على حياتي وخلاصي اني لمَّا تصدّيتُ لمناقضة الغفرانات ما كنتُ أُدرك معناها» فكان اذن فعلهُ هذا جهلاً وتعنُّتاً وعجرفةً ليس غيرةً على الكنيسة وإصلاحها

ولما استدعاهُ اسقفهُ ثمَّ الحبر الاعظم ليؤدي الحساب عن اقوالهِ واعمالهِ اظهر الخضوع اوَّلاً ثمَّ نشر راية العصيان واخذ ينفث في الكنائس وساحات المدن سموم غضبهِ على سنّ الاقداس ويحرّك مطامع امراء المانية على اوقاف الكنائس فسلبوا ونهبوا واحرقوا وقتلوا باغرائهِ . واذ ضربهُ الحبر الاعظم في ١٥ حزيران سنة ١٩٢٠ بالحرم لعصيانهِ احرق البراءة الرسوليَّة وفرَّ هارباً من وجه العدل مختفياً عند امير سكسونية فردريك صديقهِ والموافق لهُ على نفاقهِ

وبما ان الكبرياء يعاقبهُ الله بان يهمل الانسان الى اهواء قلبه مما لبث لوثاروس ان خلع كلَّ عذار فجحد كهنوتهُ وخدع راهبةً تُدعى كاترينا دي بور تزوَّجها سفاحاً وعاش معها بالزنا . ثمَّ اخذ يحرّض الكهنة على نبذ سُنَّة العزوبة على مثالهِ بل سمح لاحد امراء المانية بالإضرار اي الزواج بامرأتين معاً على عكس التعليم الانجيلي

هذا هو رجل الإصلاح الذي تفتخر بهِ الشيع البروتستانيَّة . فمن شوكهم على رأيهم نبت العنب ومن عوسجهِ التين على خلاف قول الرب . وقد عرف نفسهُ حقَّ المعرفة اذ أرَتهُ يوماً كاترينا امرأتهُ السماء لامعةً بالكواكب فصرخ متأسفاً : ليس هذا من حصَّتنا !

٢ بث تعاليم لوثاروس جديدة بالاصلاح

انَّ من يطَّلع على كتابات لوثاروس يجد فيها من الاضاليل ما كان متفرّقاً منها في كافَّة الهرطقات السابقة . واوَّل ما بنى عليهِ صرحَ تعاليمهِ هذا المبدأ الفاسد انَّ الكتاب المقدَّس وحدهُ يحتوي كلَّ دستور الايمان وحقائق الدين ليلغي بذلك سلطة الكنيسة للتعليم كأن السيد المسيح ارسل الى العالم اجمع تلاميذهُ بقولهِ: «اذهبوا واكتبوا» ولم يقل لهم «اذهبوا وعلّموا» . واضاف الى هذا المبدأ مبدأً ثانياً اشنع منهُ وهو حرّيَّة كلّ مؤمن ان يفسّر الكتاب المقدَّس على هواهُ ففتح بذلك باباً واسعاً لكلّ البدع والتوهّمات والتعاليم المتناقضة فينكر الواحد من اصحابهِ ما يثبتهُ الآخر وكلاهما على قولهِ مُلهَم من الروح القدس . تلك هي حرّيَّة الضمير او حرّيَّة الافكار ينبوع كل البدع والسفسطات

فعلى هذا الاساس الواهن بنى لوثاروس مذهبهُ . ولم يلبث ان يشفعهُ بتعاليم اخرى

الضلالُ فيها ظاهر لكل عيان بل هي والحقيقة على طرفَيْ نقيض منها انكار لوثاروس حرّية الانسان في اختيارهِ الخير والشرّ كأنهُ مدفوع اليهما من الله وبهِ ينفي كلّ ثواب وعقاب ويجعل الخلاص والهلاك تحت رحمتهِ تعالى دون ملاحظة أعماله الصالحة او الطالحة . ومنها تبرير الانسان بالايمان دون الاعمال مع رذلهِ للاعمال المبرورة وجحودهِ لمنفعتها امام الله حتّى بلغ الى هذا القول الفظيع : « أَخطئ ما شئت ولتَقْوَ ايمانك على خطاياك»

هذا الى تعاليم أُخرى عديدة مُضلَّة قال بها واوغلَ في بيداء الاوهام كإبطاله للذبيحة الطاهرة ولمناولة القربان الاقدس وكنفيهِ لحقيقة المطهر ولمنفعة الصلوات لاجل الموتى ولشفاعة القديسين واكرامهم وكإلغائهِ الاسرار المقدَّسة والرُتب الكنسيّة تحت رئاسة الاساقفة والحبر الروماني . وخلاصة القول أنهُ نقض كلّ العقائد التي علّمها ابن الله للعالم ودوَّنها الرسل بعدهُ في اسفار العهد الجديد او سلَّموها الى خلفائهم شفاهاً فبلغت الينا بتقليد متواصل لم تنفصم حلقاتهُ في توالي الاجيال

٣ أثمار اصلاح لوثاروس الموهوم

لمَّا اراد السيّد المسيح ان يحذّر تلاميذهُ من الانبياء الكذبة اعطاهم لذلك قاعدة ثابتة يميّزون بها بين الصدّيقين المحقّين والاشرار الماكرين حيث قال : « ومن اثمارهم تعرفونهم » . فلنتبر بالنظر الى نتيجة الاصلاح البروتستاني فما هي يا تُرى الاثمار التي اتى بها لخير البشر ولسعادة الشعوب ؟

ما رفع لوثاروس عقيرتهُ ليدعو الى اصلاحهِ الموهوم حتّى انفجر السدّ الضابط للشهوات البشريّة واندفع ذلك السيل الجارف بل الطوفان العرمرمي فحوَّل اوربة الى ساحة قتال طفّت شرورها وجه الارض فثارت تلك الحروب الدينيَّة التي فعلت ما لم تفعلهُ حربنا الكونيَّة الاخيرة ودامت نحو مئتي سنة

فليقل لنا المتسمون الى المذهب اللوثراني ماذا اصلح زعيمهم لوثاروس ؟ هل اصلح المعتقدات ام اصلح الآداب ؟

أمَّا المعتقدات فهي باقية راسية رسوَّ الصخر الاصمّ في الكنيسة الكاثوليكية لم يزعزعها الإعصار البروتستاني فالكنيسة وحدها يمكنها ان تثبت معتقدها عقلاً ونقلاً

وبيـ كلامنا هذا عا بعض العبادات الاختياريَّة الجارية في الكنيسة وغايتها إنعاش روح التقى والعباد ـ إنَّا نتكلَّم من الحقائق الجوهريَّة وذات الاسرار الفائقة الطبيعة فان الكنيسة لا تصدق على واحد منها الَّا استناداً الى اقوى البراهين واثبت البيّنات

وترى على خلاف ذلك الشيع البروتستانيَّة تنمو وتتعدَّد وتتشعَّب وتتفتَّت حتَّى لم يبقَ منها عقيدة واحدة يتَّفق عليها البروتستانت باجمعهم. فانَّ لوثاروس نفسهُ رأى قبل موته ٢٩ شيعةً خالفت تعاليمهُ فندم على ما فات ولات حين ندم. وهذا ما كتبهُ بيدهِ الى صديقهِ غليوم براقست :

« انّي لأعلم يا اخي في المسيح انَّ شكوكاً عديدة تحدث على حجّة الانجيل ينسبونها اليَّ. وَ السل ؟ ليس مبشّر الَّا ويدَّعي انَّهُ اعلمُ مني مئة ضعف واذا زجرتُهم لا يسمون مني فا ـ وبينهم حرباً عواناً اشدَّ من محاربتي للبابا وهم الدُّ عداوةً عليَّ منهُ »

ثمَّ يحاول تبرير نفسهِ ولكن هيهات ان يصغي احد الى دفاعهِ عن ذاتهِ. فانَّ مبادئهُ الفاسدة لا تزال كلَّ يوم تقسّم البروتستانت حتَّى بلغ عددها في هذه السنين الاخيرة نيِّفاً وثلاثة آلاف شيعة تسبُّ الواحدة الأُخرى وتزيّف تعاليمها ولا تتفق الَّا في محاربة الكنيسة الكاثوليكية مركز الايمان وعمود الحقّ

ولا ترى احداً من الكاثوليك يترك دينهُ ليدين بالبروتستانيَّة الَّا لغاية بشر ـ (الفلوس او العروس !) واعترف لوثاروس عينهُ بذلك حيث قال : اذا اراد البابا ان ينظّف بستانهُ من اعشابها الفاسدة يقلعها فيلقيها في جنينتي. وترى على خلاف ذلك الوفاً من وجوه البروتستانت واكليروسهم وعلمائهم المبرّزين يجحدون كلَّ يوم مذهبهم ويضحُّون كلَّ ملاذّ الحياة والغنى وشهوات العالم والمناصب المنيفة لينضووا الى الكنيسة الكاثوليكيَّة ليجدوا راحةً لضميرهم

وما قولنا عن الآداب فان الاصلاح اللوثراني كان لها آفةً وبيلة بوضعه ذاك المبدأ الفاسد الذي يردُّهُ كلّ ذي عقلٍ صائب اعني بطلان الاعمال الصالحة امام الله وعدم فائدتها للخلاص بينما الانجيل يدعو اليهـا في كلّ صفحة من صفحاتهِ لاسيَّما اذ يقول السيّد المسيح لذاك الشاب الذي سألهُ ماذا يعمل من الصلاح ليرث الحياة الابديَّة فقال لهُ : ان شئت ان تخلص فاحفظ الوصايا. وحيث يقول الديّان في اليوم الاخير للابرار انَّهم باعمال رحمتهم نحو العطشان والجوعان والعريان والسجين ينالون السعادة

الابديَّة. والعكس بالعكس اذ يقضي بهلاك الاشرار لإهمالهم الاعمال المبرورة

هذا ولا ننكر انَّ بين البروتستانت يوجد ناس ادباء افاضل الَّا انَّ فضلهم من حسن عنصرهم وتربيتهم وجريهم على التعاليم المطبوعة في قلب الانسان من الله ليس من تطبيق اعمالهم على المبادئ البروتستانيَّة. وكذلك لا ننكر انَّ بين الكاثوليك اشرارًا وانَّما شرُّهم لمخالفتهم تعاليم الكنيسة فقط. فلو جروا عليها لأصبحوا ابرارًا صالحين. والفرق بين الامرين ظاهر واضح

٣ ارتداد القديس اغناطيوس

هي الذكرى الثالثة التي اشرنا اليها في بدء هذه المقالة فحدثت في سنة وفاة لاون العاشر ونَشْر لوثاروس راية عصيانهِ. فكأنَّ الله قصد ان يجمع بين هذه الامور الثلاثة ليبيّن لكنيستهِ انَّهُ بفقدها كبير احبارها وبما نالها من الاسف على تمرُّد احد ابنائها عليها وتمزيقهِ لثوب المسيح لم يهملها ويقيم لها حُماةً كُماةً بسلاء يردُّون اليها بالربى ما خسرتهُ في بعض البلاد

وُلد اغناطيوس دي لويولا من اسرة شريفة سنة ١٤٩١ ورُبّي احسن تربية مسيحيَّة كامراء ذلك الزمان ولم يحصّل من العلوم الَّا ما يحتاج اليهِ في خدمة ملكهِ فدخل بلاط الملك فرديننديبن اولاد الاشراف واستعدَّ ليخدم وطنهُ في معامع الحروب التي كانت نفسهُ الكريمة تتوق اليها ليحرز لهُ فيها مجدًا اثيلًا كاجدادهِ. فتجنَّد في مقتبل العمر في جيوش الدولة وتنقَّل بزمن قريب الى اعلى مناصبها

وكان اغناطيوس يتلهَّب غيرةً على وطنهِ يتمنَّى وقوع حرب يعلن فيها عن نخوتهِ وشهامتهِ. فجاءت الظروف موافقةً لرغائبهِ. فلمَّا كانت السنة ١٥٢١ نشبت الحرب بين كرلوس الخامس خلف الملك فرديناند وامبراطور المانية وبين فرنسيس الاوَّل ملك فرنسة. فزحف الفرنسويُّون على شمالي اسبانية وحاصروا مدينة بمبلونة التي كان وُكل اليهِ امرها ومع قلَّة ما كان لديهِ من الجنود اراد ان يدافع عنها الى آخر الانفاس الَّا انَّ اهل المدينة أبوا الَّا الاستسلام الى العدوّ لما رأوا من عدد جنودهم وعظم قوَّتهم وشدَّة اسلحتهم ففتحوا لهم المدينة. فلم يشاء اغناطيوس ان يوافق اهلها على فعلهم وتحصَّن في القلعة مع من رآهم من جنودهِ متحفّزين للدفاع عنها

فما همّ الفرنسويون ان نصبوا على اسوارها السلالم وصوّبوا اليها كرات مدافعهم بينما كان اغناطيوس بصوتهِ ومثلهِ يستنهض همم جنودهِ ويستقتل لردّ غارات العدوّ الى ان فتح بقدائفه ثلمةً من الاسوار وأصلى الاسبانيّين نارًا حاميةً فأُصيب اغناطيوس بقذيفةٍ كسرت عظم ساقهِ اليمنى ووقعت على اليُسرى حجرةٌ ضخمة جرحتها جرحًا بليغًا فوقع صريعًا على الحضيض بعد ان ابلى احسن بلاء مدةً سبع ساعات متواصلة. فاستأمن جنودهُ على رغم منهُ اذ كان يرغب ان يموت موت الابطال في ساحة القتال. فدخل الفرنسويون القلعة ظافرين الّا انّهم أُعجبوا من بسالة قائد الاسبانيّين وعاملوهُ بكل لطف وإكرام وبعد ان ضمدوا جراحهُ حملوهُ في هودج اوصلوهُ الى قصرهِ. وكان يوم سقوطهِ جريحًا موافقًا لاحد العنصرة في ١٩ ايّار كأنّ روح القدس اراد بتلك الجروح المادّيّة يشفي نفسهُ ويعدّهُ لجهاد اعظم واشرف عن كتيبةٍ في نفس اليوم الذي غيّر قلوب التلاميذ في عليّة صهيون وسلّحهم بقوّته ليغلبوا العالم كسيّدهم المسيح. وفي نفس السنة التي هيّج ابليس فيها جنودهُ ليحملوا على الكنيسة مؤمّلًا بحملتهِ ان تقوى عليها هذه الدفعة ابوابُ الجحيم فتبطل مواعيد ابن الله

ولا حاجة ان نتّسع في ما جرى لاغناطيوس في قصرهِ اذ كان طريح الفراش واشرف على الموت لولا أنّ هامة الرسل القديس بطرس تراءى لهُ في المنام ووعدهُ خيرًا وشفى جرحهُ مجازاة لقصيدةٍ كان اغناطيوس نظمها لاكرامهِ. لكنّهُ رأى في قِصَر احدى ساقيهِ عارًا فطلب ان يستأنف الجرّاحون لهُ عمليّة مؤلمة جدًا تحمّل مضضها بكل صبر. ثم لزم الفراش أيامًا ريثما تصحّ الساق واذ لم يجد لهُ ذاك في قصرهِ ما يتسلّى به في ساعات الفراغ الّا كتاب سير القدّيسين عمل فيه تمثّل اولئك الابطال فقصد ان يحذو حذوهم. وما فتئ ان قام بوعدهِ وباشر تلك الاعمال العجيبة التي نقرأها في سيرة حياته ولاسيّما انشاؤهُ للرهبانيّة اليسوعيّة التي ردّ بواسطتها اقطارًا عديدة الى حجر الكنيسة وعلى الخصوص في المانية وسويسرة فضلًا عن امم الوثنيين في اقاصي العالم

فكان اذن جُرح اغناطيوس علّة لارتدادهِ وسببًا لما حصل بعدهُ من الخير العام في الكنيسة. وذلك ما حمل اهل اسبانية عمومًا واقاليمها الشماليّة خصوصًا ان يقيموا

في هذا العام اعياداً حافلة تذكاراً لذاك الواقع المظيم تقاطر الى الاشتراك بها جماهير مجمهرة من انحاء اسبانية ووفود من فرنسة وايطالية والبرتغال . فجرت في قصر لويولا وفي كيبوزكوا وطن القديس اغناطيوس في اواسط ايار تظاهُرات دينيَّة ومدنيَّة قلّما يُرى مثلها في حواضر الدول. وقد ارسل ملك اسبانية احد كبار حاشيته لينوب عنهُ بحضورها رسميًّا وكان هناك عددٌ لا يُحصى من رؤساء اساقفة واساقفة وكهنة ورهبان واشراف الدولة يتقدَّمهم الكردينال ألمراز

وزاد تلك الحفلات رونقاً انَّ رئيس الرهبانيَّة اليسوعيَّة العام ارسل من رومية ذخيرةً سنيَّة من جثة القديس اغناطيوس تُعرض في تلك المواسم . فما بلغت اسبانية حتَّى تقاطر الناس وازدحموا في كلّ مدينة مرَّت بها لينالوا بركتها فكان مرورها اشبه باستقبال ملكٍ عاد فائزاً بعد انتصاره على الاعداء

وقد وصفت الجرائد المحليَّة تلك المواسم الفخيمة التي احيت في قلوب جميع مشاهديها شواعر الايمان والحمس الدينيّ والتشبُّث بتعاليم الكنيسة التي كان اغناطيوس ورهبانهُ اشدَّ انصارها . امَّا المانية البروتستانيَّة فقد مرَّ عليها تذكار لوثاروس المئوي دون ان يجد في قلوب ذويهِ وتّراً يرنُّ . وكأنَّ المذهب البروتستاني بعد سقوط غليوم وفوضى الاشتراكيين في المانية أُصيب بضربة اليمة فتحت عيون كثيرين من اهلها وقرَّبتهم من الكنيسة الكاثوليكيَّة . نصر الله الحقّ واعاد الى الحظيرة البطرسيَّة كلّ الضالّين لتقوم بموجب قولهِ تعالى رعيَّةٌ واحدة وراعٍ واحد

عين الغوَّاصات او البرِسكوب

للاب رفائيل نخله اليسوعي

لا يجهل احد في عهدنا الغوَّاصات التي تخوض اعماق البحار خوض الطيَّارات لاعالي الجوّ لا بل قد وقفت الخاصة والعامة على شدَّة اهميتها وغرابة مآثرها المتعدّدة في ايام الحرب الكونية حيث كانت على صغرها تُروّع اضخم المدرّعات واذا ضربتها

طوربيل اغرقتها بلمحة عين في لجج المحيط . اجل كل ذلك من المعلومات المبتذلة لدى القاصي والداني

لكن هناك مشكلاً قلّما يفطن له الناس : كيف تستطيع الغواصات النظر الى ما يحيط بها على سطح البحر وهي سابحة في كبده ؟ فلعمري انها لا تأتي بادنى فائدة ان ظلّت تخبط في جوف الاوقيانوس وهي محرومة البصر لا تدري الى اي مرمًى تصوّب قذائفها الطوربيلية المهلكة . وعليهِ قد توخّينا في هذه الصحائف القليلة حلّ ذلك المشكل على اسلوب شافٍ قريب المنال بعد تقديم المهدات التي لا مندحة عنها

قلنا انهُ يتحتّم على الغواصة ان ترى ما يجول من السفن على سطح البحار بل لا بد هنا من بيان حاجتها الى ذلك وهي غير منظورة اي محجوبة في غمر المياه .

والحال انه لا يمكنها التمتع بهذا النظر بدون آلة خاصة فان اشعّة الشمس الناقلة لصور الاشياء الى شبكية عيننا لا تلبث ان تتلاشى تدريجاً في الماء فكأنَّ المياه تمتصها شيئاً فشيئاً . ففي عمق اثني عشر متراً يكاد البَصَر يعجز عن نظر الاشياء حتى الاجرام الضخمة التي تعلو فوقهُ سبعة امتار ليس الا . واذا انحدرت بالغواصة الى عمق ثلاثين متراً فمن المحال ان تميّز صخراً عظيماً يعترضك في جوف المياه على مسافة ثمانية امتار . فالقومندان نفسه المتسلط على حركات السفينة وسكناتها عاجز في هذه الظروف عن معرفة احوال طريقهِ المحفوفة بمخاطر اشدّ اهوالاً من طرق البواخر المعتادة . اجل انه يستطيع الاهتداء بواسطة مصباح كهربائي ساطع مناط بمُقدم غوّاصته وهو بمثابة مسبَر من النور تُسبَر بهِ اعماق اليمّ المخيفة المظلمة . لكن هذه الوسيلة الناجعة تفيد السائحين على سطح المحيط ليس في بواطنهِ وفي ذلك ما فيه من المحاذير الهائلة المهددة لحياة الغوّاصة وكيانها وهي من جهة اخرى لا تجديه نفعاً في مرأى تلك السفن وتصويب الطوربيل الى جوانبها عند الاقتضاء . وهيهات ايضاً ان تؤدي له تلك الخدمةَ الجليلة حقّتُهُ او بوصلتهُ التي تدلُّ فقط بابرتها الى وجهة السير ليس الى ما يعترضهُ من العقبات في كبد المياه او ما يكتنفه من البوارج على وجهها

فنستنتج من الادلّة الجليّة السابقة ان عين الغوّاصة اشدّ لزوماً لحياتها والقيام بوظيفتها الجوهريّة من عين الانسان لنفس هاتين الغايتين . فلولاها لما برزت الغواصة الى حيّز الوجود او لما نقلت الى ميدان العمل المفيد وكفى بذلك شاهداً على اهمية بحثنا

*

قد اطلقت اللغات الاوربيَّة على عين الغواصات اسم برسكوب (Périscope) وقد احسنت انتقاءه فهو مصوغ من لفظين يونانيين اولهما اداةٌ معناها حَول والثاني اسم بمعنى النظر يُراد بها الآلة الناظرة حول نفسها . وظرفُ المكان يشير الى ان عين الغواصة ترسل نظراتها الشاخية الى اقصى حدود الافق المحيط بها من كل جانب على شكل دائرة فسيحة

فلنبحث الآن عن هيئة البرسكوب وتركيبه ومبادئ علم النور التي يستند اليها في القيام بوظيفته الحيويَّة . هذه الآلة في الظاهر انبوبٌ يبلغ طوله نحو سبعة امتار ونصف ينقسم الى شطرَين موصولين على خطّ مستقيم قطرُ الاسفل زهاء ١٢ سنتيمترًا وقطر الاعلى من ٧ الى ٨ سنتيمترات . وهذا الشطر اضيق من الاول لانهُ يخترق المياه بالغًا بعض العلوّ مترين مثلًا فوق سطح البحر فتجعله دقَّتُهُ في حكم غير المنظور تقريبًا اذ يكاد يستحيل على امهر المدفعيّين اصابته بقنبلةٍ ولو عن كَثَب . والانبوب المركب من الشطرين الموصوفين مرتكز عموديًا على وسط ظهر الغواصة . وعند رأسهِ المشرف على سطح البحر موشورٌ من البلّور ومثلهُ عند كعبهِ وهو في باطن الغواصة . اما في داخلهِ فقد أُدمجت من مسافة الى مسافة عدَسيّاتٌ قويَّة كما في النظّارات الفلكيَّة

فلنفرض مثلًا ان مُدرَّعة تمرُّ في دائرة نظر البرسكوب وهي دائرة الافق كما سبقت الاشارة . فصورتُها تُدرِك الموشورَ الاعلى وتنعكس منهُ على العدسية التابعة لهُ في داخل البرسكوب ومن هذه الى الثانية ومن الثانية الى الثالثة وهلمَّ جرًّا الى ان تبلغ الموشور الاسفل فتنعكس منهُ على عين المراقب فيرى المدرَّعة مع كونها على وجه المياه بل عند اقصى حدود الافق . وانبوب البرسكوب قابل الدوران حول محورهِ العموديّ فيديره قومندان الغواصة كلّ عَشر ثوانٍ مثلًا دورةً كاملة ومقلتاه ناظرتان الى الموشور الاسفل كانهُ مرآة صقيلة فيرى فيها كل السفن والاشياء الأُخر التي ضمن الدائرة الافقية

فاذا تدانت اليهِ مثلًا المدرَّعة المذكورة فهو يشاهد رسمها مكبَّرًا نصب عينيه والعكس بالعكس . بل يستطيع الاستدلال من موقع الموشور الاسفل في دورة

رسكوب ومن المحافظة البحرية على وُجهة المدرعة وفي كثير من الظروف على الميناء التي تقـ ما . فيسهل عليه بعدَ ذلك اتخاذ كل التدابير اللازمة لمطاردة تلك السفينة وضربها بالطوربيل على مسافة معقولة اي بضع عشرات من الامتار في الغالب ذاك مبدأ البرسكوب وتلك طريقة استخدامه فكلاهما من السهل الممتنع كما يتضح من الشرح الآنف . فسبحان من قدر العقل البشري على صنع مثل هـذه المعجزات المدهشة بواسطة جهاز هو غاية في البساطة

*

سيّنا البرسكوب عين النواصات ولسنا مخطئين بيد انهُ يُستعمل في غيرها ايضاً . ند اشتهر استخدامه اثناء الحرب الكونية لمراقبة كل مـا يحدث من الحركات والسكنات ضمن الدائرة الافقيّة والمراقب جالس في داخل حصن منيع او دار مُغلقة الابواب والنوافذ حيث يصعب على العدو قتلهُ في مكمنه . وانَّما يطرأ في هـذه الظروف بعض التغير على شكل البرسكوب الموصوف آنفاً فيُصبح الانبوب البالغ نحو ثمانية امتار طولاً وزهاء عشرة سنتيمترات قُطراً على هيئة سارية ضخمة يبلـغ ارتفاعها في بعض الاحيان ٢٥ متراً . وكثيراً ما تتركّب من ستة او سبعة انابيب من النحاس تُخرَج من صناديقها ويُدمج منها الواحد فوق الآخر على اساس متين فيتكوَّن من مجموعها في وقت يسير البرسكوب البرّي المشرف على ظهر الحصن او الدار إشراف رصيفه البحري على ظهر النواصات . ومن اسهل الامور نقل السارية البرسكوبية باجمعها من محل الى آخر على أشفاع دواليب متواصلة بحسب طول السارية

وقد استخدموا ابسط واخفَّ انواع البرسكوب في الخنادق التي كادت تنحصر فيها كل معارك الحرب الكونية . وذلك حادثٌ جديد في تاريخ الحروب كما لا يخفى. كان ذلك البرسكوب على شكل انبوب مربَّع من الخشب مفتوح في طرفيه مركوز في قعر الخندق منيف على مدخله اي قسمه الاعلى بارتفاع مترين او ثلاثة امتار مثلاً . وعند الطرف الاعلى مرآة جيدة الصقل مائلة على مدخل البرسكوب ميلان زاوية يبلغ انفراجها ٤٥ درجة . وعند الطرف الاسفل مرآة مثلها منحنية كذلك على مخرج الآلة . فيفرض كون المرآة العليا متجهة الى العدوّ فمن البديهيّ ان كلَّ حركاته الظاهرة ترتسم عليها ثم تنعكس منها الى داخل الانبوب على المرآة

السفلى حيث يشاهدها الراصد ما طاب له دون ان يفوته شيء من احوالها

ولو افترضنا ان العدوّ مختبئ في جوف خنادقه فلا تزول فائدة استخدام هذا البرسكوب لانه يوقف الراصد على هيئة الارض التي احتلها العدوّ وما انطوت عليه من الوهاد والهضاب والاسلاك الشائكة الى غير ذلك مما تتيسّر به الحملة على الاعداء المجاورين

سبق لنا القول ان هذا البرسكوب البسيط يُركز في قمر الخندق وذلك صحيح اذا كان بين المتحاربين بَونٌ لا يُخشى به اصابة اعلى البرسكوب بكَلل البنادق. والّا فلا يُركز البتة وانما يرفعهُ الراصد بيدو كلما اراد استعمالهُ. وكان ذلك جارياً في الجيش الفرنسوي منذ غرة ١٩١٥ حيث لاحظ الجنود كثرة المخاطر الحافّة بمن يرفع رأسهُ فوق مدخل خندقهِ لحسن تصويب الرصاص الى الالمان. فقد كاد لا يُحصى عدد الذين قُتلوا بقذائف العدوّ لعلّة فطنتهم عند رصدهم له

*

يسرّنا الآن إطلاع القارئ على ما يسوغ تسميتهُ جدّ البرسكوب نعني آلة سبقت اختراعهُ بكثير مع كونها قائمة بعض شبه ومبنية على نفس مبدإهِ الاساسي. وهي مرآة كبيرة تُعلّق في بعض المدن على مسافة معلومة من احدى نوافذ الطابق الثاني باعتبار الطابق الارضي اولاً. فيشاهد فيها من داخل الغرفة التي بها تلك النافذة كلّ عابري الطريق ولاسيما الاشخاص القارعين باب الدار. وغنيّ عن الايضاح كون الفائدة الاخيرة شديدة الاهمية في كثير من الظروف. فكم ضيف ثقيل الظل كنّا نجونا من زيارته المزعجة المتوقعة لو تذرّعنا بتلك الوسيلة السهلة!

فلنرجع الآن عوداً على بدء الى النواصات التي اختُرع البرسكوب لاجلها ولذلك جعلنا لها المقام الاول في هذه المقالة. وبياناً لفائدتها ها نحن نصف معركتين بحريتين يتضح منهما باتمّ الجلاء عظيم شأن «عين النواصات» في ذلك الميدان الهائل من كل الاوجه. وكلتاهما من حوادث الحرب الكونية

كانت الباخرة روان (Rouen) المُقلّة لرُكّاب فرنسويين متجهة الى احدى موانئ فرنسة فرأى هؤلاء على اليمين سفينة تغرق تدريجياً في جوف المياه. فصاح القومندان القابض على نظّارته: «الالمان هنا!» وامر البحّارة بالتهيؤ للقتال المنيف

لم يمضِ دقيقتان حتى شاهدوا برسكوب العدوّ يرتفع فوق سطح البحر فتحقّقوا ان غواصة تدنو الى الباخرة لضربها بالطوربيل . فصوبت مدافع السفينة الفرنسوية الى ما تحت البرسكوب وانهالت قنابلها على تلك الجهة فغطست الغوّاصة الى عمق اعظم تفادياً من الدمار العاجل وغاب برسكوبها . بيد انهُ لم يلبث ان برز ثانية من المياه فازداد رعد قنابل الدافع والقنابل اليدوية وانصبّت على الغواصة الخافية مداراً على مسافة زهاء خمسين متراً ليس الّا — اخيراً غاب البرسكوب قطعياً وطفا بازائه بقعٌ فسيح من الزيت منبئ بان الغوّاصة أُصيبت فانحدرت الى مدفنها في اعماق البحر

امّا المعركة الثانية فقد خاض معمعتها الليوتنان أوبرن (O' Byrne) اذ اراد يعبر بغوّاصته من المعبر الضيّق المفضي الى بولة وهي اكبر الموانئ الحربيّة النمسوية في الادرياتيك وكانت اوانئذٍ تحت حماية خطوط عديدة من الطوربيل تدمّر بلمحة عين أيّة سفينة تمسّها . فتجاسر أوبرن وقصد العبور تحت هذه الخطوط الهائلة بانزال غواصته الى عمق ثلاثين او اربعين متراً لدى الاقتضاء . فسار الى الامام هازئاً بالاخطار المديدة المحدقة بهِ من كل جانب . فانقطع السير فجأة واتضح لهُ ان السببَ يساسُ اعلى البرسكوب لاحدى شباك الطوربيل عتّقته فاستحال إهباطه لاخفائه عن انظار العدو بل امتنع استخدامه بتاتاً . وحيث اصبحت الغوّاصة عمياء لا تهتدي تحتّم عليها الصعود الى وجه البحر مهما ترتّب على ذلك من الاخطار الشديدة . وحين طفت على سطح المياه أُمطر عليها وابلٌ من قنابل الناقفات والدفعيات النمسوية فالتزمت بتسليم نفسها بين ايديهم حرصاً على حياة ركابها

ففي هذين الحادثين ولاسيما الاخير اجلى الشواهد على خطير شأن البرسكوب في تسيير الغواصات وصحة تسميتنا أياه عينها . واذا استطاع الضرير بصعوبة غير يسيرة وبعد الاعتياد الطويل ان يسلك على الارض فهيهات ان تقدر الغوّاصات العمياء على مثل ذلك في جوف البحار

قصة أفيقيا الحكيمة وسليمان الحكيم

نشرها الاب لويس شيخو اليسوعي

تمهيد

بين مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة مجموعان الواحد عربيّ كُتب منذ نحو مئة سنة والآخر كرشوني يرتقي عهده الى القرن السابع عشر مكتوب بخط جميل على ورق صقيل قد اهدانا اياه مؤخرًا في حلب حضرة القس حبيب نساني السرياني الكاثوليكي. وفي كليهما قصة غريبة لم نجدها في غيرهما ولا ذكر لها في مخطوطات المكاتب الشرقيّة الاوربيّة عنوانها « خبر افيقيا الحكيمة امرأة يشوع بن سيراخ وما تمَّ لها مع سليمان الملك ابن داود النبي » يُروى فيها وصف مناقب افيقيا المذكورة ورغبة الملك سليمان في مفاوضتها مؤمّلًا الاقتران بها الّا انها بحكمتها ردَّت عنها ذاك الملك يوم زارها في غيبة زوجها فزادت في عينهِ اعتبارًا . امّا زوجها يشوع بن سيراخ فانّهُ عرف دخول الملك الى بيتهِ في غيبتهِ بياقوتةٍ وقعت من تاجهِ فحفظ ذلك في نفسهِ وابتعد عن زوجتهِ غيرةً . فأصاب افيقيا لسبب نفورهِ منها مرضٌ كاد يُودي بحياتها لولا انَّ أنها عرفت بخبرها وبلَّغت سليمان ما حلَّ بها فبرَّرها عند زوجها وأطرأ عفّتها

هذه خلاصة القصَّة ولا شكَّ أنها من الحكايات القديمة الجارية على ألسنة الشرقيين وعلى ظنّنا أنها من الروايات التي اشاعها اليهود ونسبوها الى الملك سليمان لِما يُخبر عنهُ من الميل الى النساء الحكيمات الشريفات لكنّنا لم نقف في كتبهم على ما يسند رأينا

وممّا استغربناهُ في هذه الرواية اسم « افيقيا » الذي لم نجد لهُ شبهًا في المعاجم. أهو اسمٌ ساميٌ او اسم يونانيّ فالله اعلم فان كان ساميًا فيرجع الى مادّة افق بمعنى خرَج او كان يونانيًا فهو من (ἐπιείκεια) بمعنى اللين والدَّعة والتساهل

كذلك لم نجد في ما لدينا من المعلومات اسم قرينةٍ ليشوع بن سيراخ وهو صاحب السفر الوارد في الاسفار المقدَّسة الذي كان فُقد اصلهُ العبرانيّ فوُجد منذ نحو ثلاثين سنة والفرنج يدعون كتابهُ باسم (l'Ecclesiastique)

واعجب من ذلك في هذه القصَّة وقوعها في ايام سليمان وكلٌّ يعلم انَّ سليمان الحكيم عاش في القرن العاشر قبل المسيح وابن سيراخ كان في القرن الرابع فبينهما نحو ٦٠٠ سنة فكيف امكنهُ ان يكون وزيرًا لسليمان . وقد سبق لنا في قصةِ رحلتهِ إلى قصر عاد انَّ وزيرهُ كان آساف . فلعلَّ الراوي خلط بين آساف ويشوع بن سيراخ والله اعلم

وعلى كلّ حال انَّ في نشر هذه الرواية لفائدةً لدارسي الاقاصيص القديمة ومعرفة اصلها وتحوُّلاتها بين الشعوب وهي في مخطوطنا الكرشوني من الصفحة ١٣١ الى ١٦٣

(١٣١) نبتدئ بعون الله تعالى ونكتب خبر افيقيا الحكيمة امرأة يشوع بن سيراخ وما تمّ لها مع سليمان الحكيم ابن داود النبي

قال انهُ كان هذا الحكيم الفيلسوف يشوع ابن سيراخ صاحب الكتاب المعروف باسمهِ وزير سليمان الملك الحكيم الاكبر وكان كاتم سرّهِ ومدبّر دولتهِ وعساكرهِ وكان حكيماً عفيفاً بارًّا تقيًّا

وكان لهُ امرأة اسمها افيقيا وكانت جميلة جدًّا واحسن من كلّ اهل زمانها وكانت حكيمةً عفيفةً طاهرةً بارّةً مدبّرة حازمة في جميع الامور وكانت متقية الله كلّ احوالها خائفة الله ذات صدقة وصوم وصلاة ومحبّة للفقراء والمساكين والغربا. وتُكرم الضيف واليتيم والارملة. فشاع ذكرها في بني اسرائيل بالجود والاحسان والحكمة والحسن والجمال (١٣٢) والطهارة. فبلغ خبرها الى الملك سليمان ابن داود فاشتهى ان يبصرها ويتكلّم معها حتّى يعلم منتهى امرها. ووقع في قلبهِ منها موقع عظيم

فلمّا كان في بعض الأيام أرسل اليها من عندهِ سقلابياً[١] اعني خصياً طواشياً كان مكرّماً عندهُ صاحب سرّهِ قائلًا لها: اني مشتاق الى لقائكِ والحديث معكِ. فمضى الخصيُّ الى افيقيا واعلمها بما قالهُ الملك. فلمّا سمعت ذلك القول من الرسول تألّم قلبها وتنهّدت وافتكرت ساعةً طويلة ثمّ قالت للرسول: قُلْ لسيّدي الملك انّ حكمتهُ قد ملأت العالم كلّهُ وفاقت على الشرق والغرب فكيف عرض لك سبيل الى هذا الفكر ان تُكلّم امرأةً حقيرة مثلي. ولكن أيها الملك الجليل ان كانت ارادتك بهذا الامر فلا يتمّ ذلك وزوجي يشوع في هذه المدينة لئلّا يعيّرهُ (١٣٣)

فلمّا اتى الرسول الى الملك وقصّ عليهِ جوابها اخذهُ العجب من كلامها واشتاق اليها اكثر. ثمّ انهُ احضر وزيرهُ يشوع وقال لهُ: انّ لنا حاجةً داعية عند ملك الموصل ولم أرَ رجلًا يصلح للقائهِ مثلك فاني أُريد ان تمضي الى قضاء حاجتنا. فقال لهُ يشوع: ليعش سيّدي الملك الى الابد كما تأمرني افعل

١) السقلابي او الصقلابيّ في الاصل رجل من الصقالبة (Slave) استعملهُ العرب للخصيّ لأنهم كانوا يتخذون الغلمان الصقالبة عبيداً ويخصونهم لخدمة حريمهم

فكتب لهُ سليمان كتباً وارسلهُ باكرام كما يليق لهُ وارسل معهُ جنداً وهدايا فسافر نحو الموصل . ثمَّ امر سليمان رسولهُ ان يعود الى افيقيا ويقول لها : ان مولاي مقبل اليكِ في هذه الليلة . فذهب السقلابي واعلم افيقيا بذلك . فقالت لهُ : قل لسيدي الملك ان كانت الجارية الحقيرة قد استحقَّت هذه الكرامة العظيمة حتَّى انَّ مولاها يأتي اليها (١٣٤) فانا اتضرَّع اليهِ ان لا يذوق شيئاً من الطعام الى ان يحضر ويأكل في منزل جاريتهِ

فمضى الرسول واعلم الملك بذلك . فدعت افيقيا طبَّاخها وقالت لهُ : أَحضر جميع ما يُحتاج اليهِ من اللحوم والاسماك والنعم والخراف والدجاج واطبخ بهم اربعين لوناً بطعم واحد مع اختلاف الوانها . ففعل كما امرتهُ مولاتهُ . فلمَّا حان وقت مجيء الملك بسطت لهُ قَيطون (١ بشرع زوجها حسب كرامة الملوك

فلمَّا كان الليل اتى سليمان الملك الى عندها فخرجت للقائهِ بالشموع والبخور كما يليق لكرامتهِ وأدخلتهُ الى المقصورة التي هيَّأتها لهُ . فلمَّا دخل سليمان الملك تعجَّب ممَّا رأى من الكرامة التي أعدَّتها . فصعد وجلس على السرير فاوقدت الشموع واطلقت النَّدّ (١٣٥) والعود والبخور الفائق حتَّى أضحى المكان كأنَّهُ رُقعة من الفردوس . فتعجَّب سليمان ممَّا رأى . ثمَّ تقدَّمت افيقيا وجواريها وسجدن لهُ وبسطن المائدة اللائقة لخدمتهِ وخرجنَ الى الخارج واغلقنَ الباب

فأمر سليمان لافيقيا ان تصعد وتجلس على المائدة . فصعدت وقبَّلت يدهُ وجلست مقابلهُ واخذت تمزج لهُ المُدام وتسقيهِ . فنظر سليمان الملك الى المائدة وكثرة الالوان وانواع اللحوم والاسماك المختلفة والاطعمة الملوَّنة فاعجبهُ ذلك . ومدَّ يدهُ ليأكل بشهوةٍ من تلك المآكل . فصار يأكل ويتفرَّس في انواعها ويتعجَّب من كثرة اشكالها وكلُّها مع ذلك بطعم واحد فاكل وشبع ورفع يدهُ . ثمَّ قدَّموا لهُ الواناً اخرى غير الاولى فصار يذوق منها فقط وهي مع اختلاف اشكالها ايضاً بطعم واحد (١٣٦) فعلم يقيناً ان هذا الامر حكمةٌ من افيقيا

حينئذٍ شكر الله تعالى وقال : نِعَمُكَ مقبولة أيها الربّ اله اسرائيل . والتفت

---

١) القَيطون المخدع وغرفة النوم من اليونانيَّة (Κοιτών)

الى افيقيا وقال لها: اريد ان تعلميني ما هو الرمز الذي رمزتِ اليهِ بهذه الاطعمة ؟

فسجدت افيقيا قدامهُ الوقت وقالت: يا مولاي كفتك حكمتُك التي يشهد لها العالم كلُّهُ. فما شأن السراج المُوقد امام الشمس ؟ وما هي قوَّة الأمة تتكلَّم قدَّام السيّد الملك ؟ وما هي الضعيفة الحقيرة المسكينة التي تتحرك اليوم نفسُها من الله وتستر نَتَنها وزفراتِها وفي الغد تُطرح في قبرٍ مظلم فتصبح جيفةً عاريةً ملقاةً بعيداً من البشر لا يطيق احدٌ من الناس ان يدنو اليها من نَتَنها ورائحتها الكريهة . لكنْ نفسها من الله (١٣٧) لا تموت

فلمَّا سمع سليمان هذا الكلام من افيقيا تعجَّب من حكمتها ومعرفتها وعلم أنَّها قالت هذا الكلام حتى تصدَّهُ عن نفسها لئلا يرغب فيها وعلم أنَّها فعلت هذا لاجل عفَّتها وطهارتها. فقال لها: قد صدق الذين مدحوكِ واشادوا بفضلك حقًّا أنكِ ملأتِ العالم من الحكمة

قال هذا ونهض وهو متعجّب مما سمع منها وعاد راجعاً الى منزلهِ. فلمَّا خرج من باب المقصورة طرق تاجهُ بين أُسكُفَّتي الباب من فوق فسقطت منهُ ياقوتةٌ وعلقت بذلك المكان بين الاسكفَّتين. ومضى سليمان الى قصرهِ ممجّداً لله وهو متعجّب مما شاهدهُ من افيقيا وزادت ثقته بزوجها يشوع

ولمَّا كان بعد أيام عاد يشوع من سفرهِ واتى الى عند الملك سليمان وقدَّم لهُ الهدايا والمال من ملك الموصل (١٣٨) فاكرمهُ سليمان غاية الاكرام وصرفهُ الى منزلهِ بوقار عظيم .

فدخل يشوع الى قيطونهِ وجلس فأتت افيقيا وقبَّلت يدهُ وفرحتْ بهِ وغسَّلت اقدامهُ وقدَّمت لهُ المائدة فأكل وشرب واستراح. وفيما هو كذلك لاحت منهُ التفاتة نحو الباب فنظر الياقوتة تلمع بين اسكفَّتي الباب فنهض واخذها وتأمَّلها فعرف أنَّها من تاج سيّدهِ سليمان الملك وعلم انهُ دخل الى منزلهِ

فحزن بقلبهِ حزناً عظيماً ولم يتكلَّم بما جال في فكرهِ ابداً ولكنَّهُ لم يعد يرقد في الفراش مع زوجتهِ افيقيا بل كان يرقد وحدهُ ولم يسألها عن شيءٍ البتَّة وهي ايضاً لم تخاطبهُ عن ذلك .

فمضى على هذه الحال سنتان فتغيَّر لون افيقيا ونحف جسمُها وضعفت جدًّا وهي

لم تتكلم عن سبب حزنها . فلمّا كان بعض الأيام (١٣٩) نظرت أمها الى بدنها وقد نَحَلَ فقالت لها : يا ابنتي العزيزة ما هذه الحال التي انتِ فيها وما هو وجعكِ لاني اراكِ قد ضعفتِ جداً . فامسكتها افيقيا بيدها واخذتها الى مكانٍ خالٍ واخبرتها بجميع ما جرى لها من اوّله الى اخرهِ وأنها حزينة القلب كاسفة البال من اجل زوجها يشوع

فعند ذلك نهضت أمها ومضت الى سليمان الملك وكانت كرمةً عندهُ فدخلت اليهِ وحدهُ وقبّلت يدهُ فرحّب بها واكرمها . وقال لها : ما هو الداعي لدخولك الينا اليوم ؟ فقالت له : لي حاجة اليك أيها الملك في الرجاء انك تقضيها لي . قال سليمان : حبّاً وكرامةً وما هي حاجتكِ . فقالت له : ليعِشْ سيّدي الملك الى الابد . كان لي كرمٌ لطيف عزيز عليّ فسلّمتهُ الى كرّام يفلحهُ وكنتُ اتسلّى بالله اوّلاً (١٤٠) ثم بهذا الكرم . فكان الكرّام يقاسمني ثمر الكرم فوثقتُ بهِ انهُ لا يُضيع كرمي . وها قد مرّ عليهِ سنتان وهو لم يفتقدهُ فمضيت اليوم لأنظرهُ فوجدتهُ قد خرب وتلف وبقي بوراً فارغاً . وها انا استجير بك يا سيّدي لتحكم بيني وبين هذا الكرّام الذي أفسد عليّ كرمي العزيز

فقال لها سليمان الملك : وما الذي دهاكِ حتى تهاونتِ بافتقاد الكرم الى الآن . ولماذا لم تفتقديهِ قبل اليوم . قالت له : يا سيّدي امتنعتُ عن ذلك لعلمي انّ الكرّام رجلٌ امين تقيّ فلم اشأ ان ازعجهُ

وكان سليمان قد ادرك معنى كلامها فارسل للوقت واحضر وزيرهُ يشوع الى امامهِ . فلمّا دخل وجد حماتهُ جالسةً عند الملك سليمان فاجلسهُ بجانبهِ وقال له : يا عزيزي وابني الحكيم كيف (١٤١) تترك هذه المرأة حجّةً عليك مع كثرة عقلك ومعرفتك . ثمّ التفت الى حماة يشوع وقال لها ان تُعيد كلامها قدّام وزيرهِ فسكتت ولم تفهْ بكلمة واحدة

فقال سليمان ليشوع : ماذا تقول انت في علّة هذهِ المرأة وكرمها . فعلم يشوع ما الذي كان منها وما الذي قالت للملك فقال : نعم يا سيّدي كلُّ ما قالتهُ هذه المرأة هو حقٌّ وصدقٌ . غير اني أيها السيد العزيز لم أفتر ولم اتهاون في امر هذا الكرم بكل جميل وكلّ حُسنى الى اليوم الذي ارسلني سيّدي الملك الى ملك الموصل . فلمّا

كان آنَ رجوعي اتيتُ لأفتقد الكرم اذ رأيتُ فيهِ آثار اسدٍ عظيم من داخل الباب فارتعدت فرائصي وفزعتُ فرجعتُ الى ورائي خوفاً من الاسد لئلّا يهلكني فمن ذلك اليوم ما بقيتُ اجسر (١٤٢) ان ادخل الى الكرم غير اني لم أتهاون في كرامتها كما يليق لها

فلمّا سمع سليمان ما اتى بهِ يشوع من الخطاب علم انهُ رأى شيئاً من آثاره وانهُ لم يدخل هناك غيرهُ فالتفت اليهِ وقال له : بحقٍ تكلّمتَ يا ابن سيراخ انّ الاسد دخل الى الكرم ولكن اسمع حتى اكلّمك يا يشوع . حيٌّ هو الربّ اله اسرائيل اله ابرهيم واسحاق ويعقوب وموسى وهارون الرب العظيم وحدهُ الذي لا اله غيرهُ الذي يعلم الضمائر والاسرار المطّلع علينا هو الآن العالم بما كان وما يكون السامع بما أقسمُ بهِ انّ الاسد ما فسد ولم يكن منهُ شيءٌ قبيح سوى كلامٍ منظّم بالحكمة وربيعٍ لنفس سامعيهِ . فالآن يا ابني قم بفرحٍ عظيم وقلبٍ نقيٍّ وسرور كامل وادخل الى كرمك (١٤٣) ووقّرهُ كما يليق لكرامتهِ لأنّ كرامتهُ عظيمة عند الله والناس قدّام الربّ الصباؤوت

فقام يشوع للوقت وقبّل يد سليمان الملك واخذ حمائهُ ومضى الى بيتهِ وهو فرحان ودخل الى عند امرأتهِ . فأتت وقبّلت يده فامرها ان تجلس بجانبهِ فجلست واخبرها بالحكاية كلها من اوّلها الى آخرها . فشكر الله تعالى الذي حرس نفس خائفيهِ الذي له العظمة والوقار الى ابد الابدين ودهر الداهرين امين

تمّت قصّة انيقيا زوجة يشوع بن سيراخ والحمد لله دائماً وحدهُ امين

المذهب الدرويني واصل الانسان

لحضرة الاب اسكندر طوران اليسوعيّ (تتمّة)

الجواب على بعض اعتراضات الدروينيين

اولاً التشابه بين الانواع القريبة

﴿ اعتراض اوّل ﴾ يقول الدرويئيون انّنا اذا نظمنا انواع الحيوانات الحاضرة

تدريجاً على حسب تشابه البعض منها بالبعض الآخر بادئ النظر لقلّة ما بينها من الفرق فيحكم الناظر بتحولها وترقيها من نوع الى آخر

﴿ الجواب ﴾ لسنا ننكر هذا التشابه الظاهر بين نوع وآخر في الجنس الواحد. لا بل لا تخلو الاجناس من التشابه بين بعضها في الرتبة الواحدة . ولو اقتصر الناظر الى هذا الشبه الماديّ لعلّهُ يحكم ببعض النشوء المتدل كما يرضى به اليوم بعض العلماء مع منافاتهم للمذهب الدرويني وآرائه في الاختيار الطبيعي والتوافق الحيوي وتناسل الانسان من الحيوان

لكنَّ اكتشاف العاديّات القديمة لم تثبت هذا النشوء مهما رقينا سلّم الاجيال . فانَّ علماء طبقات الارض القديمة وجدوا في التربة الواحدة هياكل الكلب والذئب وابن آوى مختلطةً وذلك منذ الاعصار الاولى التي ظهرت فيها تلك الحيوانات المتشابهة دون شيءٍ يثبت اشتقاق بعضها من بعض او تحوّل انواعها

ولا يكفي لإثبات مذهب النشوء الحكم بتشابه الانواع في صورتها الظاهرة او في اعضائها الباطنة المكشوفة بالتشريح . بل يلزم ايضاً اعتبار اخلاقها وعاداتها وغرائزها الخاصّة . ومن ثمَّ قد خُدع الدرويتيّون اذ بنوا حكمهم لبيان رأيهم على هذه الاشكال المتناسقة التي تُنظَم في المتاحف . فليس هذا برهان مقنع وكثيرًا ما ينخدع الناس بهذه الاشباه فانَّ اهل الشرق يعدُّون مثلاً الارنب والخُزَز كنوع واحد وانَّا نجعلون الارنب حيواناً اهليًّا والخُزَز بريًّا . وليس الامر كما يزعمون لاختلاف غرائزهما فانَّ الارنب يمكن نقلهُ من الوحشيّة الى الدجونة وليس الخُزَز كذلك — ثم ان اعتبرت الدِبَبة وجدت اكثر اصنافها تقتات باللحوم . ومنها نوع طعامهُ العشب — كذلك دوابّ الحقول الصغرى كالفئران والجرذان التي هي آفة على الغلات فانَّ منها نوعاً لا يمسُّ الحبوب يدعى موسارين (musaraigne) قوتهُ الحشرات فهو نافع لا بأس منهُ

ثمَّ لا بُدَّ للنواميس التي يدعي الدرويتيّون بصحّتها في ذوي الفقرات ان تصحَّ ايضاً في الحشرات . وان اعتبرنا هذه الحشرات قامت في وجه الدرويتيين عقباتٌ لا يمكنهم قطعها . فانَّ هناك اشكالاً مجنّحة كالذباب والفراش وذوات الاربعة الأجنحة الجلديّة الخ . وكلّها يصيبها على اختلاف انواعها تحوّلات شتّى فالبيضة تخرج منها دودة

ثمّ تتحوَّل الدودة الى جيز ثمّ بعد ازمنة محدودة لكل نوع الى حشرة تامّة البنية . فمن يستطيع ان يدلّ على ازمنة هذه التطوُّرات التي منها تنتج على قول دروين الانواع الجديدة ؟ وهل يكون التأثير الحاصل في الدودة موثرًا ايضاً في فراشتها ؟ وهل يكون ذلك كلّهُ مفعول الطبيعة العمياء جارياً على سبيل الصدفة . فهيهات ان ينتج عن كل ذلك كائنات منظَّمة ما لم يتولّ عقلٌ سامٍ تدبيرها في تلك الاطوار لاسيَّما ان كلّ تحوُّل يحدث في كيانها كفراشة يجب ان يوثّر في غريزتها كدودةٍ . انَّ من الواجب على مذهب النشوء والتحوُّل ان يبيّن سبب الاختلاف الواقع في وهم هذه الدودة الغائصة في الزبل وتلك الذبابة ذات الاجنحة الملوَّنة بازهى الالوان وكلاهما حيوان واحد في اطوار مختلفة من حياتها . وكذلك يجب عليه ان يُعلّل وجود دودةٍ مُشعرة تسير في العشب ثمّ تصبح جيزةً في فيلجة ثم طائرًا تزين اجنحتهُ نقوشٌ هندسيَّة كما تزين ذوي جنسهِ بأجمعهم والحيوان باقٍ في كيانه الوحيد رغماً عن اطوارهِ الثلثة افليس لهُ في كلّ حالةٍ من احوالهِ اوهام توثّر في تطوُّرهِ المثلَّث ؟

ان درس الحيوانات عالمٌ جديد لم يمعن دروين فيهِ النظر لتطبيق احوالهِ مع مزاعمهِ فلو كان فعل لعرف انَّ مذهبهُ لا يقوم لهُ قائم . والذي فتح للعلم هذا العالم الجديد منذ نحو خمسين سنة فقطهو عالم فرنسوي يُدعى فابر (Fabre) دعوهُ بهوميروس الحشرات فانَّهُ بيَّن ان بين الحشرات المتشابهة الصورة والبنية وذات الانواع المتقاربة في الجنس الواحد غرائز واوهاماً غاية في الاختلاف . فبعضها تتَّخذ لها عشًّا من الشمع وبعضها من راتينج الشجر . هذه تجعل في عشّ لصغارها قطناً وتلك اوراقاً يابسة او معجوناً من النبات تحوّلهُ الى شبه الورق . وغيرها تعجن بلُعابها تراباً فتجعلهُ عشًّا . ومنها من يكتفي بحفرةٍ في الارض او بنُخروبٍ في الشجر . وكذا قُلْ عن طرائق الحشرات في تغذية صغارها فالواحدة تهيّئ لنسلها غذاء من النبات العسليّ تجعلهُ في حُقّةٍ مختومة ملصقة بالبيضة . والاخرى كالنحلة الاهليَّة تغذي صغارها يوماً بعد يوم . هذه تقدّم لها طعاماً من لحم الهوامّ المخدَّرة وتجعلهُ داخل البيضة وتلك تصيد لها كلّ يوم طعامها وهلمّ جرًّا فليس نوع منها الّا يجري على منوالٍ خاصّ لبناء عشهِ ولغذاء صغارهِ ولصيد فرائسه الخ

أفيستطيع الدروينيُّون ان يبنوا رأيهم في وحدة اصل بعض هذه الحشرات على

ما يرونهُ من الشبه الظاهر في صورتها حتَّى ولو كانت من جنس واحد كالنحل مثلًا ؟ فكيف يسهون عن هذه الاختلافات التي عدّدناها في كلّ صنفٍ منها وغيرها ايضاً سبق لنا وصفها ولاسيَّما انَّ عدداً عديداً من صغار هذه الحشرات لا تخرج من بيضها الَّا بعد موت الوالدين كما انَّ العلماء تحقّقوا انَّ تلك الطباع الموصوفة هي ثابتة في الحشرات لا يصيبها اختلاف البتَّة. وكلّ ذلك لمَّا ينسف مدّعيات الدروينيين نسفاً ويخالف ما يزعمونهُ من ترقّي الانواع سابقاً حتَّى بلغت الى حالتها اليوم من الكمال ثمَّ حاضراً لترقّى وتتحوّل الى ما هو افضل واكمل

وان اعترض الدروينيُّون انَّ هذا التحوّل يصير بعد اجيال عديدة. اجبناهم ان الحفريَّات الجيولوجيَّة لم تهدنا الى هذه التحوُّلات فالحيوان اليوم كما ظهرت هياكلهُ قبل الوف من السنين. وزد عليهِ انَّ الحشرات تتناسل مرَّة واكثر في كلّ سنة فكيف لا نجد بعد الوف من السنين في صورتها كمالًا جديداً يدّعيه الدروينيُّون. بل ترى العنكبوت تنسج لحمتها وسداها اليوم كما كانت تفعل في عهد ارسطاطاليس وتمجّ النحلة شمعها وعسلها كما كانت تفعل في زمن سليمان الملك. فيتَّضح ان هذه الانواع كانت في ذاك العهد السحيق ثابتة لم يصبها اختلاف البتَّة. قال العلَّامة هير (O. Heer) : « انَّ الثبات العجيب الذي نجدهُ ليس في بنية الحيوانات فقط بل في أوهامها الغريزيَّة لمن اوضح الادلّة المبطلة للمذهب الدرويني في النشوء والتحوُّل لأنَّ بهِ نعلم انَّ تلك الاوهام ليست نتيجة التقليد والاحتذاء. بل هي مجبولة في طبيعتها بيد خالقها. فلو كانت تلك الاوهام ثمرة تربيتها على ما يزعم دروين لكانت قابلة للترقي والكمال ولاسيَّما في الحشرات القصيرة العمر العجيبة الاوهام الكثيرة التطوُّرات في كيانها »

والحقّ يقال انَّ ثبات الاوهام في هذه الهوامّ اوضح وارسخ منهُ في ذوات الفقرات لأنَّ تلك الاوهام متوفّرة فيها ومع وفرتها تجدها باقية على حالها دون ادنى ترقٍّ وتحوُّل

قد سبق لنا في مقالتنا «الحشرات الجزّارة» (المشرق ١٨[١٩٢٠]: ٣٥٩–٣٦٦) وصف عدَّة حشرات تظهر من الاعمال الغريزيَّة العجيبة لإعداد غذاء صغارها ما يحيّر العقول وذكرنا هناك صيد الهامّة المدعوة سكولي (Scolie) لدود حشرة اخرى تدعى

بثوان (Cétoine) فاذا وجدتها في الارض وتحت نفايات الاعشاب انتزعتها وألصقت بيضةً من بيضها على دودةٍ واحدة بعد ان خدَّرتها دون قتلها حتَّى اذا حان وقت تفقيص البيضة خرج منها الصغير ووجد طعامهُ مهيَّأً فيأكلهُ طريئاً ولئلّا تموت الدودة سريعاً يبتدئ بالاعضاء الثانويَّة فيلتهمها تدريجاً ثم ينتهي بعد ايام باكل الاعصاب الحيويَّة. فكم في هذه الاوهام الغريزيَّة من الاعمال العجيبة التي تنفي كلَّ مدَّعيات الدروينيّين :

١ً ترى اوَّلًا هذه الدودة في بدء حياتها حاصلةً على اوهام كاملة تستعين بها لاكل غذاء مخصوص ملائم لها

٢ً ترى ثانياً انَّ اوهام هذه الدودة اذا تحوَّلت الى فراشةٍ تتغيَّر وتختلف دون علم سابق فتنبش التراب وتستخرج من عمقهِ دوداً من جنس حشرات معلومة لتلصق بدودة منها بيضها وكأنها تعلم انَّ تلك الدودة تؤذي صغيرها عند تفقيهِ بيضتهُ فتخدّرها وتبنّجها دون ان تقتلها فلو قتلتها يبس لحمُها فلايستطيع الصغير ان يغتذي بها

٣ً ثم ترى الكمال في وهم الصغير منذ اوَّل حياتهِ بحيث يعلم من اين يباشر الأكل من صيدهِ لئلّا تقضي الدودة سريعاً فيفقد غذاءهُ ويموت هو ايضاً لا محالة اذ ليس لهُ غذاء سواها

٤ً . ثم اعتبر الحشرة الأُمَّ التي تعدّ الطعام لصغيرهِ وهي تموت قبل ان تراهُ فتلقّنهُ اعمالهُ لطريقة غذائهِ وترشدهُ الى بقيَّة التصرُّف في حياتهِ

فكل هذه الاعتبارات التي تنقد المذهب الدرويني من اصلهِ ليست خاصَّة بهامَّةٍ واحدة بل بهوامَّ عديدة ولكلّ منها اوهامهُ النوعيَّة لا يحيد عنها مطلقاً وليس ادنى دليل على تحوُّلها وترقّيها. لا وايمُ الحقّ لا يستطيع الدروينيُّون ان يأتوا بشرح معقول لبيان هذه الاوهام المتعدّدة في كلّ نوع من الحشرات مع ثباتها عليها. ومن ثمَّ قام المسيو فابر منتقداً لآراء دروين ومثبتاً انها آراء سخيفة مضحكة. وكفى بحكم هذا النابغة برهاناً على بطلان مذهب النشوء والتحوُّل. ومن ثمَّ قد رمى دروين الكلام على عواهنهِ اذ خصَّص في كتابهِ عن اصل الانسان نيفاً و ٤٠٠ صفحة ليبيّن ما يوجد من الاختلافات العرضيَّة نتيجة الاختيار النسلي في قرون ذوات الاثدي وفي لون ريش الطيور واجنحة الفراشات ليستدلّ بذلك على انهُ يمكن القول ايضاً بتناسل

الانسان من القرد . لأنّ اختلاف الوان الاجنحة وصورة القرون او طولها وغير ذلك من التشابهات العرضيّة ليست اموراً جوهريّة في بيان إستقلال انواعها . وانّما الاصل في ذلك ان يبيّن خواصّ اوهاما . فتلك طباعٌ ثابتة لا تتحوّل على الاطلاق . واذا ثبتت هذه الاوهام بطلت ايضاً حجّة الدروينيين المستندين في زعمهم على التشابه الظاهر

ثانياً الحاجة تنتج الاعضاء

﴿ الاعتراض الثاني ﴾ يقول الدرويتيّون انهُ قد ثبت انّ بعض اعضاء الحيوان قد ضعفت وشلّت لعدم استعمالها كما انّ اجهزةً اخرى على خلاف الامر تتقوى وتشتدّ بالعمل والتمرين فيجوز اذن القول بانّ الحاجة تُنتج الاجهزة والاعضاء

(الجواب) قد سبق لنا ايضاح هذا المبدأ الذي يتشبّث بهِ الدرويتيّون اذ يزعمون انّ الحيوانات من ذوات الاثدي والزحّافات والطيور كانت عند مقتضى الحاجة تنتج لها اعضاء جديدة لتقوم بحاجات حياتها وقد ضربنا لهم في ذلك امثالاً شتّى (اطلب الصفحات ٦٦١–٦٦٢) وكان يوسعنا ان نضيف اليها امثلةً اخرى مضحكة كسعة عيون البوم لترى في الظلمة وكسنام البعير ليستطيع حمل الاثقال وكالجلدة بين اصابع الطيور المائيّة لتسبح في المياه وكطول مناقير طيور الهواء لثقب الشجر او صيد الفرائس وكلّ ذلك على قول الدروينيين انّما نشأ في الحيوان عند احتياجهِ الى تلك الاعضاء بقوّة عمياء كانت فيهِ في سالف الاعصار وهي اليوم قد بطلت

ونحن لا ننكر انّ الاعضاء العاملة تقوى بالشغل والتمرين وانّ الاعضاء الباطلة تضعف . ألا ترى مثلاً انّ قوّة السمع في الضرير الاعمى اشدُّ واقوى فتقوم لهُ مقام عيونهِ . وكذلك حاسّة اللمس فيهِ ادقّ وألطف . ومثلهُ الموسيقي الذي يضرب بالبيانو والبهلوان الراقص على الحبال فكلاهما يبلغ الى حذاقة غريبة ذاك في تحريك اصابعهِ وهذا في توازن حركاتهِ . ونسلّم ايضاً للدروينيين انّ اجنحة الطيور تقوى بالطيران وانّ الطيور الاهليّة كالوزّ والدجاج وديك الحبش والنعامة لا تستطيع الطيران لعدم تمرّنها عليه منذ اوّل نشأتها . ولكن لا صحّة لقول دروين انّ هذه الطيور فقدت قوّة الطيران لعدم استعمالها وكان استعمالها مفيداً لها لكنّها اذ وجدت في اعضائها ثقلاً واجهزةً غير مناسبة للطيران كفّت عنهُ

ونوافق هِكِل على قوله انَّ حاسَّة البصر وغير ذلك من الحواس تزيد كما لا في الطبقات الحيوانيَّة على قدر ما ترتقي من جنس الى آخر ولكن أينتج من ذلك كما يزعم هِكِل انَّ تلك الحاسَّة اللطيفة المركَّبة من اجزاء دقيقة الموَجهة لنظر المرئيات الخارجة هي مفعول الصدفة او نتيجة سياق أعراض متعدّدة وقعت اتفاقاً دون عقل ازليّ تولَّى صنعها ؟ لا لعمري

وقس عليهِ ما يزعمهُ الدرويتيُّون عن أذناب الحيوانات وغير ذلك من أجهزتها فانَّ ما يأتون بهِ من التعليل لوجودها في الحيوان اي حاجتهُ اليها مع الانتخاب الطبيعي كلُّهُ حدس باطل لا صحَّة لهُ اذ يجعلون للحيوان ادراكاً سابقاً وغاية بعيدة يرمي اليها منذ عدَّة اجيال . وفي كلّ هذه المزاعم من الغرابة والتخيُّلات ما لا يخفى

فيا لله ليس احد من الدرويتيّين يجسر ان يقول بانَّ آلةً ما بخاريَّة تتركَّب دون ان يعالجها هندسيّ صناعيّ ماهر يحكم صُنع كلّ جزء منها ثمَّ يضمُّها الى بعضها ويجهّزها للغاية التي يتوخاها . فكيف يستطيعون ان ينسبوا الى الصدفة والاتفاق أجهزة الحيوان مع انَّ كلّ جزء من اجزائها يستوجب نظراً خاصاً لما فيهِ من دقَّة الصنع وتباين الاجزاء . وليس الكلام عن جهاز واحد لبعض الحيوانات بل عن أجهزة كلّ الحيوانات المنبثَّة على الارض . فلا تُدهشة اذن لمشايعي دروين ان يعترفوا بوجود كائن اسمى واعظم يتولَّى تدبير كلّ هذه الطوارئ . امَّا نسبة حدوثها الى الحاجة فلا يفي بالمرام . أفليس من حاجة يا ترى للانسان ان يرى في الظلمة كالبوم فما لهُ لم يحصل على هذه الحاجة ؟ . او ليس عدَّة دوابّ في حاجة الى سنام مثل الجمل لتحمل اثقالها فما السبب انَّها حُرمت ذلك الجهاز فأُعطي للجمل دونها ؟

وكذا قل عمَّا يخترعهُ الدرويتيُّون لتعليل ما يجدونهُ في كلّ صنف من الاجهزة الخاصَّة للقيام بامور معاشهِ والدفاع عن نفسهِ فانَّ تلك التعليلات لا سند لها الَّا في دماغ القائلين بها . لأنَّ مبدأهم انَّ الحاجة تُنتج الآلة لا يصحّ الَّا بان يُفترض للحيوان علمٌ سابق بما يسدُّ حاجاتهِ ويرفع بهِ من حالةٍ ادنى الى حالة ارقى فانَّ علماً كهذا يفوق طور الحيوان غير الناطق . وغاية ما يتوق اليهِ هو ان يوافق نوعهُ واوهامهُ الخاصَّة بنوعهِ وما يخرج عن ذلك فلا يخطر لهُ على بال لأنَّهُ يجهل ما هو خارج عن كيانهِ ومن ثمَّ يسقط قول دروين بانَّ الحاجة تنتج الآلة

ثالثاً التنازع للبقاء

(الاعتراض الثالث) قد جعل دروين تنازع الحيوانات لحفظ بقائها كاحد عوامل مذهبه وكسبب اختلاف الانواع وتوفُّرها . فعلى قولهِ ان الافراد الحاصلة على افضل الخواصّ هي التي تثبت وتنمو فيترقى كلٌّ منها مماثلاً للصفة الغالبة عليهِ

(الجواب) يعرض العلماء امر التنازع للبقاء على خلاف ما يرويهِ دروين فانهم ينكرون عليهِ ما يدّعيهِ بان هذا التنازع يُنتج انواعاً جديدة من السلالة الواحدة وانما يحمل تلك السلالة على سَوَاء فقط بإلغاء الافراد الضعيفة الضئيلة وصيانة القويّة منها كما يجري في الانتخاب الصناعيّ اذ يختار الانسان المواليد القويّة ليحصل على افضل منها قوّةً وشكلاً . امّا حصول الانواع الجديدة بهذا التنازع فمن اضغاث الاحلام

لا بل انّ من يعتبر الحفريّات الجيولوجيّة وما وُجد فيها من هياكل الحيوانات القديمة وقابلها مع الحيوانات الجديدة التي من جنسها وجد الانواع الحديثة ادنى جنساً واصغر حجماً واخفّ قوّةً من الانواع الاصليّة التي ظهرت في اوّل العالم وذلك على عكس المذهب الدرويني . مثاله جنس الفيَلة (Proboscidiens) التي فُقدت ولم يبقَ منها حاضراً الّا الفيل الهندي الحالي وهو دون الانواع السابقة كبراً وقوّةً . وكذلك الطيور فان ما وُجد من هياكلها القديمة يدهش العقل بكبرهِ واشكالهِ وصورهِ . والطيور الحاليّة بالنسبة اليها كالأقزام بازاء الجبابرة . وقس عليها الزحّافات القديمة التي كانت كالتنانين يستر بطونها قشور عظميّةٌ على خلاف الزحّافات الحاضرة التي تخلو صدورها من ذاك الدرع فهي ادنى جنساً من السابقة . من الزحّافات القديمة ما كان مجنّحاً يستطيع الطيران ولم يبقَ لنا منها اثرٌ حيّ بل آثار مستحجرة في اعماق الارض

وما نقولهُ عن الحيوان الكبير يصحُّ ايضاً في الهوامّ والحشرات التي كانت في اول ظهورها كاملة الصورة اكبر حجماً من الانواع المعروفة في عهدنا

ويجوز اطلاق هذا القياس على نباتات اطوار العالم الاولى فان ما وُجد من انواعها في اعماق الارض كالخنشار والنبات المخروط الشكل كلّها غاية في العظم والنموّ والتشعّب تفوق الانواع الحاليّة فوقاً كبيراً . فترى ان الآراء الدروينيّة من هذا القبيل ايضاً لا سند لها ينفيها علم طبقات الارض والعاديّات الجيولوجيّة

رابعاً مفعول الوسط

(الاعتراض الرابع) يستند الدرويـنيّون لاثبات مذهبهم الى التأثير الحاصل في ألوان عدّة حيوانات بعامل الوسط

(الجواب) ان مفعول الوسط في تلوين بعض الحيوانات التي تعيش في اراضٍ كَبِدة اللون مغبرّة ربّما أثّر في لونها الرمادي الأغبر . كذلك الدبّية والارانب الساكنة في جهات القطب حيث الثلوج الغرّاء هي بيضاء اللون . ويشبه الاسد الافريقي لون الصحاري التي يعيش فيها والارنب لون الاسيجة التي يسكنها والسَّلوى والحجل لون الصخور والصرائف اليابسة التي يأويان اليها . وبعض الحشرات تتلوّن بلون الاعشاب التي تألفها . ومن الفراشات ما تشبه اجنحتها في تقاطيعها الرمريّة قشرَ بعض الاشجار التي تألفها

فيصرخ الدرويـنيّون ان هذا من عجائب طباع الحيوان الذي يلتجئ الى هذه الالوان ليصون بها نفسهُ من عدوّهِ . وذلك من دلائل فهمهِ

قلنا ان هنا ايضاً يجب الانكار على دروين وإبطال ما يستنتجهُ من النتائج الباطلة التي لا تثبتها المقدّمات . فانّنا مع اقرارنا بفعول الوسط في تلوين بعض الحيوانات لا نسلّم له بالنتيجة التي يستنتجها من ذلك . لان هذا المفعول المذكور ليس بالمطلق فكم من الحيوانات التي تخالف الوانُها الوانَ الامكنة التي تعيش فيها . وكم نعرف من الحشرات والحيوانات التي تخالف الوانها الوان الوسط فتزدهي بألوان شتّى تعرّضها لسهام اعدائها . فاين فهمُها المزعوم اذا كان يجب عليها ان تحذو حذو رصفائها من الحيوان ؟ . فان كان الدبّ والارنب يتلوّنان بالبياض تشابهاً بالثلج في جهات القطب فانّ هناك حيوانات اخرى سوداء اللون وشباه . الخ . فتعميم دروين لهذا المبدأ يناقض مذهبهُ كما انهُ مخدوع برأيهِ اذ يزعم ان تلوّن بعض الحيوانات على شبه الوسط انّما عمدت اليهِ قصداً لرغبتها في التستّر من اعدائها . فان الحيوانات الصيّادة كالكلب وغيرهِ اذا حاولت صيد حيوانٍ لا تسعى الى اصطيادهِ بالنظر الى لونهِ بل باستنشاقها رائحتهُ لدقّة هذه الحاسّة في الحيوانات الصيّادة اذ تستنشق من بعيد رائحة عدوّها فتثب عليهِ مدفوعةً اليهِ بشمّها

خامساً التشابه بين الانسان والقرد

(الاعتراض الخامس) انَّ بين الانسان والقرد وجوهاً من التشابه لا يمكن انكارها

(الجواب) هذا التشابه انما هو في الشكل الخارجيّ ولا يدلُّ على شيءٍ مما يزعمهُ الدروينيُّون . فانَّ الله اذ ابدع انواعاً مختلفة من ذوات الفقرات خصَّ كلاً منها بخواصَّ شتَّى مع حفظهِ على وحدة الرسم الذي توخَّاهُ وقد اراد ان يجعل الانسان كخاتمة تلك الطبقات المتباينة

ثمَّ فليعتبر الدروينيون القرد والانسان من كثب فكم بينهما من الاختلافات تظهر ليس فقط في ادبيات الجنسين ولكن حتَّى في تركيبهما الظاهر . انَّ القرد كما هو معلوم قد طُبع على تسلُّق الاشجار وكل بنية جسدهِ موافقة لهذه الغاية . يخالف القرد الحيوانات ذوات الاربع والانسان معاً بجوارحهِ الاربعة التي هي اربع ايدٍ (quadrimane) لهُ اربع اذرُع بالغة الطول واربع ايادٍ الابهامُ فيها مقابلٌ لجميع الاصابع . هذا فضلًا عن ذنبهِ الطويل الذي يستطيع ان يقبض بهِ على الاغصان فهو لهُ بمثابة يدٍ خامسة . ثم لا ينتصب القرد في مشيهِ الَّا مرغوماً فان طبيعتهُ كطبيعة الكلب ان يدبَّ على اربع قوائمهِ ما لم يرغْهُ حاجةٌ على نصب قامتهِ . فاذا أُهمل الى غريزتهِ أقعى في جلوسهِ

والانسان على خلاف ذلك فان بنيتهُ تستدعي انتصابهُ . وقد خصَّهُ الله بين كل حيوانات خليقتهِ بهذه المنحة اعني قيامهُ منتصباً وهذه الهيئة يحصل عليها ليس فقط من تركيب صورة رجليهِ ولكن من قوام كلّ هيكل جسمهِ . وما قولنا عن دماغهِ وعن زاوية وجههِ الخ

ولاجل هذه الاختلافات العديدة بين الانسان والقرد لم يشأ الدروينيون ان يقولوا بتناسل الانسان رأساً من القرد وانَّما وضعوا بينهما حلقات عديدة متوسطة لا يزالون يبحثون عنها كما روت مجلّة الهلال في عددها الاخير في مقالة عنوانها «الحلقة المفقودة» ذكرت تألُّف لجنة اميركية سافرت الى جهة الصين لتبحث عنها (كذا والجنون فنون!)

وما قولنا الآن عن الاختلافات الادبيَّة بين الانسان والقرد التي يعجز عن

شرحها مشايعو مذهب النشوء والتحوُّل . انَّ الانسان يتكلَّم وينطق ويفكر ويبرهن عن آرائهِ منطقيًّا ويعمل وفقًا لغاية يقصدها . الانسان متدين مائل الى الآداب الحسنى قابل الكمال . نظرهُ تبسُّمهُ ضحكهُ كلُّ حركاتهِ تشهد على عقلهِ . امَّا القرد فلا نُطق لهُ ولا فهم ولا دين ولا ادب ولا ضمير . هل عرض لاحد من الناس ان ينسب خطيئة او اثمًا الى القرد ؟ وقد اثبتنا سابقًا ما رواهُ الاسقف السيد لوروا اذ كان مرسلًا عند برابرة الكنغو فأوقد معهم نارًا للاستدفاء . فرأى قردًا بعد ابتعادهم جاء ليستدفئ واذ تعجَّب من فعلهِ قال لهُ اولئك الهمج : يأتي القردة اذا رأوا نارًا موقدة فيتدفأون عندها لكنهم لم يستطيعوا ابدًا انْ يوقدوا نارًا ولا ان يحشُوها لئلَّا تنطفئ .

وكذلك اخبر ما شاهد عند اولئك البرابرة من الافراح في اعراسهم كما تجري في كلّ اقطار العالم . فمن سمع يا ترى بمواسم فرح للقردة ؟

وكفى لتفنيد هذا المذهب الباطل انَّ هكل لم ينضوِ اليهِ ولم يقل بالتحوُّل والنشوء الَّا ليتخذهُ كوسيلة لنكران وجود الله وخلقهِ للعالم . فلا عجب انهُ اعتبر الانسان متناسلًا من الحيوان خاليًا من نفسٍ روحانيَّة . وعلى مثالهِ يكون من يرتأي رأي الماديّين فيزعم انَّ الانسان من القرد فانهُ بقولهِ هذا ينفي (اولًا) وجود الله . ينكر (ثانيًا) روحانيَّة النفس وخلودها فتموت بعد الجسد . ومن ثمَّ يجب القول (ثالثًا) بعدم وجود ابديَّة وكل ثواب في السماء وعقاب في الجحيم . ثم ينتج (رابعًا) ان لا فائدة من الآداب ولا فرق بين الخير والشرّ ولا بأس ان يسرق الانسان ويقتل ويزني اذا امكنهُ الفرار من العدل البشري . واخيرًا (خامسًا) ينتج ان الحقّ في العالم لصاحب القوَّة فردًا كان او امَّةً . وانهُ ليس قاعدة في العالم سوى الصالح الشخصي عدلًا كان او جورًا

فكل هذه النتائج التي يمجُّها العقل الصائب فضلًا عن اهل الدين والتقى تتصل بقول هكل وانصارهِ اتّصال الثمرة بشجرتها ونتيجة القياس بمقدَّماتهِ . وفي كتب الفلسفة يزيّفها العلماء بالادلَّة القاطعة فنحيل اليها القرَّاء . وانَّما نكتفي بالمقابلة بين الطفل الصغير وبين مواليد الحيوانات لترى ما بينهما من الفرق . فانَّ ابن الانسان يولد وينشأ ويكاد يبلغ الرشاد وهو لا يعرف شيئًا . على خلاف مواليد الحيوان فانها منذ اوَّل ولادتها حاصلة على كمال العلم الغريزي ورثتهُ من الابوين دون تلقين ولا عناء

فانَّ الطائر يعرف بناء عشهِ بكل اتقان. تعرف النحلة ان تجني الزهور وتعمل الشمع والعسل. لبعض الحشرات قوة الإنارة فتبث من جسمها نورا مشعًّا بعضها في قعر البحر وبعضها في الهواء. تستطيع بعض الاسماك ان تطلق من جسمها طلقات كهربائية تقوى على قتل رأس خيل. وكلّ ذلك يعلم بهِ الحيوان دون علمٍ سابق او تلقين من الابوَين. وانّما هو كخلقةٍ يرثها الابناء عن الجدود دون توسط. وهيهات ان نجد شيئاً من ذلك في الانسان فلا نرى نجّاراً او بنّاء او مهندساً او حائكاً يورث ابنهُ عند مولدهِ علم النجارة او البناء او الهندسة او الحياكة مع ان مذهب دروين يستلزم هذه الوراثة لأن الانسان على رأيهِ يجمع في شخصهِ كلّ خواص الحيوانات اجدادهِ. وعلى عكس ذلك اذا كبر الولد تراه قادراً على ان يتعلّم كلّ العلوم بينما يبقى الحيوان على علمهِ الغريزي الموروث لا يزيد عليهِ ذرّةً

بين النقوش التي تزيّن احد ابراج كنيسة بورج الكاتدرائية في فرنسة صورةٌ امرأة تمثّل الجنون. امامها قردٌ تسعى بان تعلّمه القراءة فهي تصرخ بملءِ فيها وتُظهر قنوطها من بلوغ أربها. فهذا الجنون الذي اخرج اولئك المهندسون صورتهُ على هذا المثال نجدهُ اليوم بعد ثلثمائة سنة في مشايعي دروين الذين يفرغون المجهود في رفع شان القرود ولولا كرامتهم لشبّهناهم بتلك المرأة المجنونة التي لم يُجدها عناؤها وصراخها نفعاً

خلاصة مقالاتنا السابقة

ان من تصفّح ما كتبناهُ حتّى الآن يمكنهُ ان يستخلص من كلامنا بعض النتائج الآتية: ان في مذهب التحوّل والنشوء مزاعم شتّى منها ما هو مخالفٌ تماماً للحقيقة ومنها ما هو حدسٌ وتخمين فلا شيء يقضي على العقل بقبولهِ لا من الايمان ولا من العقل

وقبل كلّ شيء يجب رذل ونبذ آراء هكل المادية وهو يدّعي بقدم العالم وبظهور الحياة على وجه الارض بقوّة الطبيعة وحدها فيتذرّع بذلك الى نفي وجود الله ونكران خلود النفس على خلاف ما يرويهِ الوحي ويؤيّدهُ اعتقاد الامم وبيّنة العقل الذي لا يسلّم بوجود معلول لا علّة له. وقد ثبت بطلان قولهِ بالتولّد الذاتي لتعليل وجود الحياة

بعد ان بيّن باستور انّ الحيّ لا ينتج الّا من حيّ سابق. فلم يبقَ بعد ذلك لهكل سندٌ يسند اليهِ رأيهُ فان استمرّ عليهِ هو وتابعهُ فيهِ بعض الناس فما ذلك الّا ليتحرّروا من ربقة الدين ويستسلموا دون رادع الى اهواء قلوبهم . على خلاف اصحاب الدين والعقلاء فكلّهم يزيّفونهُ

امّا رأي الدروينيين المتدلين المعتقدين وجود الخالق والقائلين بتطوُّر الانواع في الحيوان والنبات لظنّهم ان ذلك يبيّن على وجه افضل ترقّي الكائنات وتسلسلها بعد خروجها الاول من يد الخالق فان ذلك ينفي اضاليل المادّيين لكنّهُ ايضاً زعمٌ وتخمين يردّ الاختبار معظمَ ما يتشبّث بهِ هؤلاء من الادلّة وهم يفترضون عدّة افتراضات ويعتبرونها كحقائق علميَّة راهنة دون ان يثبتوها بالواقع . وهذا ينافي الاساليب العلميَّة

يسلّم دروين بان الله خلق في اوّل العالم بعض الامثلة الحيوانيَّة او النباتيَّة ثمّ اهملها لقوّتها الغريزيَّة التي تمكّنت دون وساطة الخالق او عقلٍ فيهم الى ان تنتج من تلقاء ذاتها انواعاً جديدة حصلت لها في تمادي الاجيال على يد عوامل عمياء اجتمعت صدفةً

وفي هذا القول مع اعتدالهِ نوعاً امورٌ بعيدة عن كلّ صواب اذ ينسب النظام والترتيب والغايات السابقة لقوّات عمياء تتآلف وتتوافق لتأتي بغايةٍ لا تستطيع ادراكها . قال العلّامة الانكليزي الدوق دارجيل (d'Argyll) : « انّ قول دروين هذا في اتّفاق القوى العمياء لتوليد الانواع يشبه قول من يزعم انّهُ يكفي لوضع قصيدة هوميروس (الالياذة) ان يؤخذ مجموعُ حروفها ويُلقى ميكانيكياً فتتألف منهُ صدفةً تلك القصيدة بتمامها »

ثمّ التجأ الدروينيّون لاثبات رأيهم الى الانتخاب الطبيعيّ زاعمين انّ بهِ تألّفت في توالي الاجيال كائنات ذات خواصّ جديدة وأجهزة جديدة تترقّى كمالًا مع توالي الازمنة . وهذا ايضاً من التخيُّلات التي لا تؤيدها صدقاً العوامل التي اضافوها اليها كالحاجة ونفوذ الوسط اذ لا يمكن تلك العوامل ان تؤلّف وتنظّم المفعولات التي يزعمونها

وكذلك رأينا انّ اكتشافات الجيولوجيين وحفريّات ارباب الطبقات الارضيَّة والعاديّات الاثريّة تناقض مدّعيات المذهب الدرويني اذ يجمل الانواع المختلفة ناجمة

من بعض الامثلة الاصليّة فانّ اقدم تلك الآثار جامعةٌ للأنواع المتعدّدة د[illegible]نة على اشتقاق بعضها من بعض وتحوّلها من انقص الى اكمل سواء بقيت [illegible]تو الى عهدنا ام بادت او استحجرت ثمّ قام بدلاً منها انواع غيرها ثابتة مثلها . و كذ[illegible] النباتات القديمة قد بقي منها مستودعات عظيمة تدلّ على نموّها [illegible]دّة اجيال متعد[illegible] وليس هناك اثرٌ للتحوّل الدروينيّ المزعوم . وقد طلب الدروينيّون المتدلّون شرحاً معقولاً لتعليل وفرة الكائنات الآلية التي تُرى في جملة المستحجرات فزعموا انّ الله عاد غير مرّة وأبدع أمثلةً جديدة لا اثر لها في الاطوار السابقة ومنها انشأت الانواع المستحدثة . وهذا ايضاً قول لم نجد له اساساً في علم العاديّات كما يقرّ بهِ الدروينيّون لا بل تنقضهُ تماماً ويشهد ما اكتُشف من تلك الكائنات في طبقات الارض المخ[illegible] انّ النبات والحيوان المعاصرَين لتلك الطبقات كانت انواعهما في كمالها ولم يوجد من[illegible]رع واحد يمكن إثبات تحوّلهِ من نوع الى آخر دون شبهة . امّا الاختلافات العرضيّة المو[illegible]دة بين الاشكال فليست برهاناً مقنعاً على صحّة رأي دروين اذ يمكن الانسان بالتن[illegible]بِ الصناعيّ ان ينالها بيد أنها لا تثبت اذا كفّ العامل الخارجيّ عن مواصلة تأثيرهِ فيها

ثمّ انّ ما يوجد من الاختلافات العظيمة في اوهام الحيوانات المتقاربة النوع سواء كانت من ذوات الفقرات او من الحشرات تؤدي للمتمذهبين بمذهب دروين مشاكل جديدة لا يقوون على فكّها . ومثلها قولهم عن تناسل الانسان من الحيوان ولو افترضوا انّ الله خوّلهُ نفساً روحانيّة فانّهم لم يثبتوهُ بحجّة مقنعة وينفر عنهُ اليوم كلّ ذي عقل صائب وذوق سليم اللهمّ الّا بعض الدهريّين والماديّين

فلا عجب بعد هذا ان نرى العلماء الموثوق بهم بعد ان انحازوا مدّةً الى الرأي الدرويني عدلوا عنهُ واهملوهُ وقد شهد احد اساطين العلوم الجيولوجيّة المأسوف عليهِ المسيو دي لاپاران (Mr de Lapparent) على انقلاب اولئك العلماء عن رأيهم بقوله : « انهُ من العجب العجاب كيف ارتدّ العلماء الحاليّون عن مذهب النشوء والتحوّل بعد ان اصاب عندهم حظوةً . فتراهم اليوم يكادون يقرّون بتكوين الانواع على التتابع وينكرون على دروين تحوّل الانواع وترقّيها وانّما يجعلون تلك انواع متوازيةً مهما رقوا في سلّم الدهور » وكذلك ورد في مجلّة الابحاث العلميّة (Revue des Questions Scientifiques, t. XVIII, Janvier) عدّة شواهد من اقوال العلماء

سقوط المذهب الدرويني كقول الواحد: «ان المذهب الدرويني قد مات منذ زمن مديد في نظر العلماء المتنوّرين». وكقول الآخر: «قد أفلس المذهب الدرويني فلم يعُدْ يوثق به كمذهب عمومي نظري» ويقول ثالث: لا يمكن اعتبار مذهب دروين البتّة كمذهب عليّ». وهذه الاقوال يتّفق في اعلانها علماء كاثوليك وغير كاثوليك فلولا وقوفهم على بطلان ذلك المذهب لما صرّحوا به في المجلّات العلميّة

على انّ المذهب الدرويني مع خمولهِ وتلاشيهِ قد زرع في قلوب كثيرين وهماً لا يزال يرعى فكرهم وهو مبدأ التحوُّل (l'Evolutionisme) الذي لا ينفي وجود الله ولا إبداعهُ تعالى للمخلوقات حيناً بعد حين لكنّهُ يدّعي بإمكان تسلسل الانواع بعضها من بعض وذلك بقوّتها الغريزيّة التي نالوها من فضلهِ تعالى. ويقولهم هذا لا يحسبون الله مجدهُ لأنهم ينسبون اليهِ اول مثال خلقهُ عزّ وجلّ وخوّل ذلك المثال قوّة محدودة تؤدي بهِ الى انتاج انواع سبق علمهُ بها. فيبقى الله هو العلّة الاولى للنظام الموجود في العالم وعلّة وجود الكائنات ومايطرأ عليها من التنوّعات. فهذا المذهب يختلف عن المذهب الدرويني وقد انحاز اليهِ قوم من العلماء حتّى الكاثوليك والمؤمنين

على انّ الذين عدلوا الى هذا الرأي لم يتّفقوا في تعيين اتّساعهِ وحدودهِ فنهم من يحصر ذاك التحوُّل في حدود ضيّقة لتوليد بعض الانواع ومنهم من يوسع دائرة نطاقهِ فالاوّلون يقولون بان الله خلق اول حلقة من كلّ جنس فتفرّعت الانواع من الاجناس على مدى الاجيال. والآخرون يزعمون ان الله خلق فقط في اول العالم امثلةً من النبات والحيوان كمثال ذوات الفقرات ومثال الحشرات ومثال النبات ومن هذه الامثلة تألّفت رُتب الكائنات واجناسها وانواعها. وكلّهم مع هذا يستثنون خلقة الانسان الذي يجعلونهُ في رتبةٍ خاصّة مستقلّة عن الحيوانات التي سبقتهُ

هذا الرأي الذي ذاع بين بعض العلماء لم يرضَ بهِ كثيرون غيرهم ولا عجب اذ لا يتجاوز الحدْس والتخمين ولا يؤيدهُ شيء من الاكتشافات. لا بل تنفيهِ الادلّة التي سبقنا فدوّناها في مقالتنا ولاسيّما ما قلناهُ عن اختلاف اوهام الحشرات وثبوتها العجيب حتّى في الانواع المتقاربة الاشكال كما تُبطلهُ ايضاً اكتشافات علماء العاديّات والجيولوجية حيث وجدوا في اقدم طبقات الارض القريبة من بدء تكوينها اصدافاً

حيوانيّة من النجوميّات الشكل والمُلاميّات وذوات المفاصل وبعض ذو... ت التي صبرت انواعها مذ ذاك العهد السحيق الى يومنا دون ان يطرأ عليها اختـ... كر ولا تحوُّل البتّة. فلو صحّ قول هؤلاء العلماء المتدلين لوجدنا سنداً لقولهم في تحوُّلات هذه الميزات الاوَّليَّة فثبوت انواعها يردُّ مزاعمهم

وعلى كل حال انّنا لم نشأ ان نُنقي تماماً ببطلان هذا التحوُّل النوعي المحصور في نطاقٍ ضيّق وانّما ننتظر وجود ادلّة مقنعة توجب بردّه بتاتاً او بقبول بعض آرائه . فان هذه اقوالٌ علميّة لا دخل لها في حقائق الايمان التي وحدها تبقى ثابتة الى الأبد لا يستطيع العلم البشري أن يزعزع اساسها المتين وهي مبنيّة على ... الازليّة التي لا يحجب نورها غمام

ذكرى لوفاة نابوليون الاوّل

لحضرة الخوري بطرس صفير

جرت هذه السنة احتفالات عظيمة في فرنسة تذكاراً للمئة الاولى من وفاة نابوليون الاوّل فكتبت الجرائد فصولاً شائقة أعادت فيها الى الاذهان ذكر ذاك الداهية الذي طبّق اسمهُ المعمور . فرأينا بهذه النسبة ان نروي بتصرُّف قصّة ظريفة قرأناها في المجلّة الفرنسويّة «المطالعات للجميع» تحت عنوان «ابنا ملك رومية وغليوم امبراطور المانية الخليع» (١

بعد ما ناصب نابوليون العداء ملوك اوربة وامراءها وقد اجتمعوا عليه عشرين عاماً وبذلوا على حربه المُهجات كان أن ظفروا اخيراً به وغلبوهُ على امره واكرهوهُ على عكس ما كانت تطمح اليه نفسه من الفتوحات والغنائم فاقاموه في قصر فونتنبلو وفيه تمَّ امر خلعه وتخليه عن الملك لابنه وتسييره الى جزيرة إلبة محلّ منفاه

١) اطلب Lectures pour Tous. *Avril*, 1920, pp 937

فانصرف عنهُ الانصار والاعوان وبقي في سجنه الفخيم ينتظر يوم إبعادهِ وقد لمن لزادهِ وجالهِ ان يظلّ في القصر في عداد من عُيّنوا لخدمهِ . ومما تركوا له من مشتهاهُ ببغاء كانت زوجتهُ الاولى جوزفين احضرتها من جزائر اميركا فراضتها ولقّنتها كلمات كانت تثير في نفس نابوليون عند سماعها عواطف الابتهاج وهي : فريدلند ! ريفولي ! مَرَنغو ! اوسترليتز ! ايلو . وهي اسماء مواقعه وانتصاراته الشهيرة . ومثلها الفاظ اخرى عسكريّة يقولها الجند كانت الببغاء تلقّنتها

فلمّا كان مساء ذلك النهار المشئوم سكنت الضوضاء في القصر شيئاً فشيئاً وساد فيه الهدوّ فجلس نابوليون قرب نافذة يسامر النجم ساهرَ الطرف مفكراً حيران يتسمّع نجيج العربات المتباعدة وهو عارف انها تقلّ آخر من انصرفوا عنه جبانةً وكم كانوا عروا له بانّ روابط تعلقهم بهِ واخلاصهم له لا تفصم عراها طوارئ الايام . ممّ كان له في نفسهِ وقع اشدّ من وقع النصال . وقد زاد في نفسهِ انقباضاً علمهُ بان اعداءهُ لا يسمحون ان يرى قبل سفره الى المنفى الامبراطورة زوجتهُ ولا ابنهُ الوحيد الذي ضحّى النفس والنفيس في سبيلهِ . وقد تحقّق ان ابنهُ سيسلَّم الى احد اعدائه السياسيّين اعني جدّهُ امبراطور النمسة

واذ لم يهدأ له بال ولم يغمض له جفن عصاهُ تجلُّده وخرج من غُرفتهِ كأنهُ يريد الفرار من هواجس ضميرهِ المزعجة . فبلغ الى اسفل الرتاج واذ بالسكوت سائد مالئ الهواء والخلاء لا يسمع غير حفيف الاشجار ووقع الاوراق تتساقط من على الاغصان . فرأى احد الانفار واقفاً متّكئاً على بندقيّتهِ فتوجه اليهِ واملّ هذا الجندي كان يعمل الفكر مليًّا بما مرّ امامهُ في ذلك النهار فلم يشعر بدنوّ نابوليون . وهما كذلك اذ طرق أذني الجندي فجأةً صوتٌ يتهدّدهُ : « الحذر ! الحذر ! » وهي الكلمة التي ينبه بها الجنود قوادهم في حركاتهم العسكرية

فالتفت فاذا بالامبراطور بجانبه فرفع بعجلة بندقيّتهُ وحيّا . . . وهو خجل من تغافلهِ . وقد اعترت نابوليونَ نفسهُ رجفةٌ لدى سماعهِ فجأةً صوت الآمر « الحذر ! الحذر ! » غير انهُ لم يلبث ان تبسّم في فتور وانقباض عند ما عرف ان هذا هو صوت الببغاء العزيزة على مقربة منه في قفصها الذهبي فانها اذ أحسّت بدنوّ سيّدها ردّدت له ما قد تعلّمت فمدّ الامبراطور اليها يدهُ يلاطفها وكأنهُ شعر بانكشاف بعض الهم

عنهُ عندما لاعبت اصابعهُ ريشَ الطير الناعم فصارت تلحسها بلسانها الخشن

ثمَّ رجع نابوليون الى الجندي ووضع يدهُ على كتفهِ بلطفه المعهود ولطالما كان هذا اللطف وسيلةً فعّالة لدفع الجنود الى اقتحام المخاطر عن رضى وارتياح وقال لهُ: ما اسمك؟ . قال: اسمي فلامبو (سراج). قال: كم شهدت واقعةً وانتصاراً؟ قال: كنت في كل انتصاراتك مولاي . قال: كم اصابك فيها من الجروح؟ قال: عشرون

فردّد نابوليون: يا للوفاء! يا للشهامة! عشرون جرحاً وهو لا يزال ثابتاً على العهود في حين انَّ من غمرتُهم بالاحسان أعرضوا عني مسرعين

قال الجندي وفي صوته ارتجافٌ: آه مولاي أشرْ الينا اشارةً فقط ترَ ... مئتي الف بطل مستعدين ان نهبَّ ونفديك بارواحنا

قال نابوليون: كلّا يا صاح حسبُ فرنسا ما نالها من العناء بسبب ... وب لندعها تضمد جراحاتها فعليكم الآن بالسكينة. أليس لك ولد ينتظرُك في بيتك؟

— لي ابنة مولاي

— عُد اليها شاكراً اذ انهم لم يسلبوك اياها كما فعلوا بي . . .

— لكنهم سيدي سيردُّون اليك ابنك ملك رومية ألم يتعهَّدوا . . .

— دع عنك هذا الكلام فانَّ الوفاء بالعهود لا يُعرف عند من يخالط الالمان كثيراً ام قليلًا . وكذلك النمسة فانها ستُرجع بالشمال ما اعطتهُ باليمين لانهُ اذا كانوا منعوا الامبراطورة وملك رومية من الحضور هينا فليس ذلك ليسمحوا لهما ان يوافيا الى جزيرة منفاي . . .

ثم كتَّف الامبراطور يديه وسرَّح نظره بعيداً وقال تخنقهُ الحسرات: ليت شعري هل من امرٍ افظع من هذا وهو ان يُنفى والد ولا يُسمح لهُ أنْ يدفع لابنهِ الصغير تذكاراً؟

فاقترب الجنديُّ وانحنى امام نابوليون وقال: مولاي هل من وديعة ام من تذكار انقلهُ الى وحيدك او الى امهِ فاني احملك اسلمهُ الى من تريد ولو كان ذلك في اقاصي الارض

وكان الامبراطور رجع الى البيناء ينظر اليها نظرة الحنان وهي تعضُّ قضبان

بها الذهبيّة وبعد ان تردّد هنيهةً دنا من الجندي وقال له : قد رضيتُ بما طلبت مني لانّ مثلك ... دياً أُصيب بعشرين جرحاً حيّاً لسيّده لمَن يؤتمَن على كل نفيس عزيز . انظر هذا القفص ارغب اليك ان تحملهُ الى ملك رومية وتخبره باسم هذا الطير . قل له : « انه هديّة ممن اجمعتم على تسميتها جوزفين الحنون وهي علّمته ارضاء لخاطري كلمات الاوامر المألوفة واسماء انتصاراتي واذكر له انّ هذه الببغاء ردّدت هذه الاصوات في احدى الليالي السالفة حين كان احد الخوَنة متسلّلا خنجراً ليفاجئني بطعنةٍ فذعِرَ من صوتها فنجوتُ . . . قل له ان يتذكر ويكون دائماً على حذر فان الذين قد رموا النسر لا يبعد ان يصوّبوا سهامهم على فرخه . . . »

فسالت الدموع من عينَي الجندي متحدّرةً على خدّيه وقد لوّحتها الشمس ... تعاب تلويحاً ثمّ قال : سأُسلم القفص الى سيدي ابنك مهما كلفني الامر

قال نابوليون : لله درّ هذه الهمّة ! خذ هذه البَدرة فانت لاشكّ محتاج الى بذل المال وسأُعطيك تذكرة مرور ولا غرو انهم سيحترمونها اذ لم يعودوا يخشون مني اذيّة . ثم اسند يده على متكأ الدرابزون ووقّع التذكرة ثم تعانقا وهما ساكتان وعاد الامبراطور الى قصره يمشي الهوينا بينما كان الجندي واقفاً رافعاً بندقيته ليحيّي مليكه المرّة الاخيرة والببغاء لا تزال تصيح بشدّةٍ وبغير انقطاع كلماتٍ تعيد الى الذهن ابدع بائدة : « فريدلند ! ريفولي ! فكرام ! اوسترليز ! ايلو ! »

٢

مرت ستّة اعوام على هذا الوداع ولم يعد ابن نابوليون يُدعى بملك رومية بل لُقِّب بدوك رِشتاد وقد بلغ التاسعة من عمره وهو في قصر شونبرُون قصر امبراطور النمسة وعُيِّنت لهُ الغرفة نفسها التي اختارها ابوه حين دخل هذا القصر ظافراً واقام فيهِ مع اركان حربهِ في السنتين ١٨٠٤ و ١٨٠٩ حين وقّع على معاهدة الصلح مع النمسة . وكان الولد ذا منظرٍ بهيّ وطلعة وقّادة يزيد حسنهُ شعرهُ الاشقر المتجعّد المسترسل على كتفيه . غير انه كان ضامراً قلق البال سريع الحركات غير ميّال نظير الاولاد الى اللهو والضحك والالعاب . ولا غرو فان امّهُ لم تكن لتكترث به اذ كانت في مدينة پارمة بين حاشيةٍ لها منصرفةً الى الملذات مع ذوات جنسها .

وكان أخفي عن الولد ان اباه كاد يقضي نحبهُ فريسة الاشجان في جزيرة القديسة هيلانة حيث نُفي . ولم يكن مصاقاً في قصر شونبرون مـا يستأنس به او يرتاح اليه عمن كان يقربهُ . فان جدّه الامبراطور كان شيخاً طاعناً في السنّ عبوساً قليل التكلم كثير القلنون لا يلاطف حفيده ألا بتكلّف وتحفظ . فلا عجب اذ لم يلن قلب الفتى الى محبّته كما انه لم يودّ مَن كان يخدمهُ ويذبهُ من الاوانس اذ لم يأنس فيهنّ ما تعوّده من اللطف واللين في الربّيات الافرنسيات وزدْ انه لم يجد في هواء شونبرون وسمائها شيئاً من النقاء والصفاء اللذين ألفهما في عاصمة فرنسة

فاتفق انه ذهب يوماً مع احدى مهذّباته قصد ترويح النفس في حديقة فجلست المعلّمة وصار هو يتجوّل في الحديقة الى ان ابتعد مسافة وبلغ احدى مضايق البستان فرأى فيه فتاة بالثانية عشرة من عمرهـا قائمة بين الاعشاب والازهار وقد ادهشه مرأى بنفاء بالقرب منها غريبة الشكل تردّد بلا انقطاع كلمات افرنسية . . . . . فاسرع اذ ذاك نحوها وسألها : من اين هذا الطير ؟ — قالت : من فونتنبلو — قال : من اعطاك اياه ؟ قالت : ابوك الامبراطور سلمهُ الى بي وكلفه ان يقدّمهُ . . . واضافت بكل احترام : «جلالتك»

فقاطع هذا الحديثَ ظهورُ المعلّمة وقدومها اليهما فـارت الابنة ومعها البنفاء واختفت بين الاشجار كي لا تقف المعلّمة على مـاوي حديثها واضطرّ الولد ان يرجع مع مهذبته الى القصر . وحدّث ولا حرج ما ابقت هـذه المقابلة في نفسهِ من القلق والاضطراب . . .

وفي اليوم التالي كان الفتى جالساً في غرفتهِ كئيباً نظير السجناء غير مبالٍ بالطيور التي كانت تغرد على نافذتهِ وقد سقط الكتاب من يدهِ على الارض وهو غائص في بحر التأمل والافكار . وكانت المعلّمة النمساوية تشتغل في التخريم على مقربة من النافذة فرفعت اليه رأسها وقالت : هل حفظت امثولتك يا سيدي؟ فتولّت الاميرَ رجفةٌ واسترجع كتابه بالرغم عنه وقال : كلّا . فتركت شغلها ودنت منه وقالت : عليك ان تجتهد فيا بعد وتتعلمها وسأرجع اليك لتتلوها على مسامعي . فاجابها وهو يتكلّف البشاشة : نعم

ولما خرجت المعلّمة وأقفلت الباب وقف الامير ورمى بكتابهِ مغضباً وقد علت

على محياه علائم الامتعاض وقال : لا لا . وذلك لانه لم يقف على استظهار اسماء حروب وجد في كتابه لم يكن النصر فيها حليف فرنسة وقد شق عليه ان يسرح البصر في حسابه لم يرَ فيه بزات الحرس الامبراطوري الفرنساوي بل صوروا فيه اعداء فرنسة بملابسهم الصفراء والبيضاء.. فلم يلبث ان وقف يتسمع فأرعبته قرعة غير منتظرة على باب غرفته واوّلُ ما خطر بباله ان المسيو مترنيخ داخلٌ عليه بصلفه كما فعل سابقاً بمعية زوارٍ ليسوا على شيٍ من الظرف والآداب يتلفتون في غرفته ذات اليمين وذات الشمال كانهم يحاذرون رجلاً مختبئاً في احدى الزوايا مضمراً لهم الشر

وكاد الغلام يصيح جزعاً اذ فُتح الباب على مهلٍ فتثبت مَن القادم اليه واذا هي فتاة كسا محياها التعب ثوباً من الاحمرار وقبل التحية اشارت عليه ان يلزم الصمت وابدت له عيناها التألقتان انها هي الابنة التي التقى بها صدفةً في احدى مضايق البستان وعرفته بنفسها انها ابنة احد الفقراء الفرنسويين. ثم تقدمت بكل لطفٍ واظهرت له من بين ثنايا ثوبها قفصاً ذهبياً تتخطر ضمن قضبانه البيناء بدلالٍ وخيلاء فاستقبل الامير الطير الامين بذات الحفاوة التي ودّعه بها أبوه الامبراطور في تلك الليلة الظلماء فمدّ يده يلاطفه بانبساطٍ فشرع الطير يردّد صدى الدروس العجيبة التي تلقنها من امجاد نابوليون الخالدة من فم الامبراطورة الاولى

وبين تغاريد البيناء كانت الفتاة تواصل سرد تفاصيل اخبارها على مسامع الامير قائلةً : ان اباك الامبراطور قال لابي : عليك بايصال هذه البيناء الى ابني ملك رومية مهما كلفك الامر فنقلها والدي الى باريس ومنها الى بلوا ثم الى ليون ثم الى ڤينة ولقد تكبد في سبيلها مشقاتٍ واخطاراً ولا تزال حياته معرّضة للهلاك كل يوم في هذه الانحاء اذ انه كاد اكثر من مرّة يُرمى بالرصاص كجاسوس ولكن كل هذا لم يكن ليثنيهُ عن الوفاء بأيمانه وقد تمتُ انا ووالدتي نتبعه اينما سار التمام بخدمة جلالتكَ عند ما تبلغ اشدّك لان جلّ رغائبنا ان نساعدك في تخليص والدك

— وهل ابي باقٍ في جزيرة إلبة ؟

— كلّا بل في جزيرة اخرى .. وهي ابعد من الاولى

ثم أخذت الفتاة تردد على مسامعهِ اخبار والدهِ فوصفت فيها المساكن الجرارة

الخافقة فوق رؤوسها أعلام النصر كيف دكّت الحصون الحصينة وأرهبت الملوك والسلاطين الى ان دخل الامبراطور ظافراً الى هذا القصر وما كان من أمره فيه

فكان الامير الصغير مقبلاً على الفتاة بشوق يردّد ما تقول بصوت منخفض قصدَ ان تعلق هذه التذكارات في قلبه فلا تقدر على نزعها منهُ الايام مهما تناهى التابس في الصلف فقال لها بعد هنيهة: زيديني من اخبار والدي لأزيد بها ابتهاجاً. واذا بالبيناء انتصبَتْ والتهبت عيناها التهاباً وانتفش ريشها وهتفت بصوتها الحادّ هتاف الاستنجاد المعروف: الحذَر! الحذر! فخاف الولدان وابتعد الواحد عن الآخر واختفت الابنة القفص تحت ردائها واسرعت الى ستارٍ هناك واختبأت خلفهُ. فعند ذاك فتح الامبراطور جوزف الثاني الباب بغتةً ودخل عابس الوجه كالحاً متحذراً وقال لحفيده: هل احسنتَ شغلك اليوم يا فرنتز؟ فتردّد الامير الصغير هنيهةً غير ان ذكر ابيه نبّه منهُ حمية كانت راقدة وشعر بنشاطٍ جديد سرى في عروقه فافترّ عن ثغرهِ الدرّي بابتسامة لطيفة وقال بشدّة: نعم نعم يا جدّاه! اتقنتُ الشغل اليوم. قال ولم يكذب لان اسماء جديدة علقت في ذهنهِ وهي لعمر الحق اسماء مجدٍ وافتخار. وبينما كان فرنسوا الثاني مبتعداً عن حفيدهِ في اروقة قصرهِ وقد خيّم فيها السكون والظلام بدت الفتاة من وراء الستار وشرعت البيناء تطرب آذان الامير بنغماتها: فريدلند! ريفولي! فكرام! اوسترلتز! ايلو!..

٣

كرّت مائة سنة على ما جرى في قصر شونبرون وقد قضى كل مَن فيهِ وتبدّل ولم يبقَ ممّن حضر تلك الحوادث الّا البيناء ولعمري هو انعام غريب في بابهِ خُصّت بهِ تلك الخلائق المتكلمة من غير فهمٍ وعقل (وقد ثبت لدى علماء الحيوان ان معدل عمر البيناء والغراب مئتا سنة) ولم تزل معروفة باسم بيناء ملك رومية وكانت لا تفارق قضيباً ذهبياً في مدخل قاعة الاستقبال الكبرى متشبثةً بهِ مرتجفة الرأس محمرّة العينين منتفشة الريش لا تنفكّ عن لغطها

فلما كان مساء اليوم العشرين من تموز سنة ١٩١٤ على عهد الامبراطور فرنسوا جوزف وله اذ ذاك من العمر تسعون عاماً حدث في قصر شونبرون حركة غير مألوفة وقد اشغل الخواطرَ وصولُ نقلة البريد الامبراطوري بكثرة لم يعهدوها وصدرت

الاو[illegible]يا بان يلازم كلٌّ مكانه ولا يحضر احد المقابلة السرّية المنتظرة الّا الامبراطور وحده . و[illegible] بسيّارة ضخمة تنهب الارض نهباً وقفت على مدخل القصر وقد أُسدلت الستائر [illegible]ى نوافذها فاسرع الامبراطور الى باب القصر ليتقبل زائره فاذا رجل مفتول الشاربين في احدى ساعديه شوهٌ احدهما اقصر من الآخر خرج من الستارة وكان هذا القادم غليوم الثاني امبراطور المانية

فتعانق الامبراطوران ولمّا صارا في مدخل البهو الكبير توقف غليوم لمحةً امام البيناء وقد أحدقت بهِ ناظريها ثم هزّ كتفيه وقال بدهشةٍ : « تُرى لم يمت بعدُ هذا الطير المجنون ! »

و[illegible] فرنسوا جوزف على ما هو مشهور عنهُ يعتقد بالخرافات فلم يأذن بقتل تلك ا[illegible] الغريبة مع انهم كانوا يهابونها ويبغضونها نظير سائر الاشباح التي يقال عنها انها تتردد الى منازل عائلة هَبسبورغ—ففتح فرنسوا جوزف باب القاعة الكبرى فابى غليوم واشار الى غرفة قريبة جذبه اليها وقال : ليس في هذا البهو بل في غرفته عينها (يريد الغرفة التي احتلّها نابوليون) لاننا مثلهُ نعدُّ الاستيلاء على كل العالم . فسار معهُ فرنسوا جوزف بالرغم منهُ حذراً من إحياء تذكارات ميّتة

فدخلا الغرفة الصغيرة التي احتلّها نابوليون وسكنتها ابنة دوك دي‌رشتاد الذي لدى سماعهِ اخبار ابنة الخفير فلامبو (سراج) شعر بالشرف الذي خوّلهُ إيوهُ بتسميته ملك رومية . فتمّ اذ ذاك بين الامبراطورين الاتفاق على إشهار تلك الحرب الجهنّمية التي ذهب فيها عشرة ملايين من البشر في اراضي اوربة وآسية وعلى سطح بحار العالم باسرهِ

لمّا في تلك المؤامرة واذا بصوتٍ قويٍ سُمع وسط ذلك الليل المدلهمّ : الحذر ! الحذر ! فتغير لهذا الصوت لون الامبراطورين وقد اخذهما الدهش فقال فرنسو[illegible]وزف همساً : ان فرنسة تسمعنا !

فتهكم غليوم وقال : هو الطير المجنون بيناء ملك رومية ثم رفع خوذته يلوّح بها فوق رأسهِ وقال : الى باريس ! الى باريس ! عن قريب الى باريس ! . وبعد اعداد الجريمة افترقا . ولما مرّ غليوم امام البيناء توقف وصار يتهددها ويداعبها بيدهِ السليمة وحاول ان يستعيدها اسماء انتصارات تطرب بسماعها الآذان الالمانية اي قاترلو !

سيدان ! فهزت البيغاء رأسها وصارت تردد اسماء مجيدة تلقنتها في الماضي فريدلند ! ريفولي ! فكرام ! اوسترليتز ! إيلو ! فكأنها بلسانها الرشيق انبأتهُ بما تضمر الايام من الانكسارات الغريبة . فامتعض غليوم امتعاضاً وابتعد تحت اجنحة الظلام وللظلام يدٌ في ارتكاب المعاصي

٤

كانت نتيجة تلك المقابلة السرية اعلان حربٍ ضروس التهبت نيرانها خمس سنوات اقتتلت فيها الشعوب اقتتالًا وسالت الدماء فيها انهارًا ثم عقبها صلح لشرقت شوسه على المسكونة اذ دارت على غليوم الدوائر وبعد ان كان القيصرَ العاتي المهاب اضطرّ ان يهرب من وجه الحلفاء ويلجأ طريدًا شريدًا الى بلاد هولندة باسم فردٍ مجهول من اسرة هوهنزولرن (وهي اسرة امراء بروسية) وهناك يقيم ضيفاً على الكونت بنتنك بمثابة اسيرٍ في قصر أميرونجن . وقد بات مبتذلًا مهاناً باعين اعوانهِ الذين وعدهم بالاستيلاء على العالم باسرهِ وصارت تلتهب لهُ في قلوبهم نار البغضاء . واما المارشالية فقد انكروه الواحد بعد الآخر واولهم هيندنبورغ الذي كان غليوم سخط عليهِ وحطهُ من مقامهِ عن عتوٍ وكبرياء ثم لوددندرف وفلكنهين الى البقية كلهم

فاتفق انهُ في صباح احد ايام الشتاء والسماء تنهل انهمالًا كان غليوم يسير في حديقة القصر غير مبالٍ بالسيول الجارفة تحت قدميه وكانت الغربان تنعق على اشجار نزعت منها العواصف كل اخضرار فاذا بصوت طيرٍ غريب علا نعيق الغربان فوقف لهُ الاميرِ متسمّعاً وخيّل اليهِ انهُ يعرف لهجتهُ غير انهُ عند انقطاع الصوت فجأةً جزم ان هذا وهمٌ وتخيّل فارتفع الصوت ثانيةً بنوعٍ جليّ رغماً عمّا فيهِ من الخشونة والغلظ وهتف مكرّرًا : الحذَر الحذَر !

فتذكر غليوم البيغاء التي سمعها في قصر شونبرون ساعةَ وقّع على اشهار الحرب الطاحنة وشتّان بين تلك الساعة وهذه وشتان بين حالتي غليوم . فعجّل السير ليستجلي امر البيغاء المشؤومة وعبثاً حاول مَن معه ارجاعهُ عن قصدهِ خوفاً من العاصفة فوصل الى طرف الحديقة فرأى على مقربة من جدار غرفة حقيرة من خشب تجري على اربعة دواليب كبيرة لها باب ونافذتان معلّق عليها سلّم صغير وكان فيها رجلان

حت وجهها لفحات الحرّ فحدق غليوم بناظريه في داخل الغرفة وسألها: من انتما؟

يا: نحن من النّشالك (جماعة من النور)

— من قدمتما؟

— من شونبرون في النمسة هرباً من المجاعة فيها

فكادت لا تقلّ غليوم رجلاه فقال: من شونبرون؟ لعلّ هذا الطير...

فقاطعهُ الغريب بقولهِ: صدق ظنُّك هذه ببغاء ملك رومية العريقة في القدم اشتريناها لندور بها في البلدان ونرتزق منها بعرضها على الناس في المواسم. ولعمري لا افصح منها وكلماتها غريبة. ادخل سيدي ترَ ما يعجبك

فولج غليوم الغرفة واخذ الرجل الطير على اصابعهِ يلاعبهُ وقال: لله درّ هذا الطير يردّد...

فقاطعه غليوم: أعرف انهُ يردّد اسماء حروب قديمة جداً اصبحت نسياً منسياً

— عفواً يا سيدي واسماء حروب جديدة ايضاً فقد تلقَّن اسماء انتصارات حديثة العهد اعظم من القديمة

وكأنَّ الببغاء مشتركة في حديث صاحبها فصوَّبت نحو غليوم عينيها السوداوين وقد ربّتا وتأكّلتا على ممرّ الايام وصاحت باعلى صوتها: لامارن! قردون! لامارن!... قردون!... (وهما اسمان لموقعتين شهيرتين انتصر فيها الفرنسويون على الالمانيين)

فضحك اصحاب الببغاء. وأجفل غليوم مذعوراً ثمَّ ولّى مدبراً تحت وابل الامطار ولم تزل الببغاء تعقّب الصوت الآخر: الحذر! الحذر! لامارن! قردون! لامارن! قردون! وبلغ غليوم غرفته في قصرهِ وكأنه يحاول النجاة من هذا الصوت المشؤوم لكنَّهُ لم يبرح يرنّ في اذنيهِ ولعلَّهُ يصبح كمنخاس في ضميرهِ الى ان تحكم العدالة الالهيَّة حكمها في من جرّت كبرياؤهُ على البشرية ضروب الشقاء والدمار!

النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

٤ شعراء النصرانية

اذا ما تخطَّينا الآن من هذه البيّنات والادلّة العموميّة عن الشعر النصراني ونفوذه بين عرب الجاهليّة واعتبرنا أفراد الشعراء الذين اثبتنا اسماءهم وقصائدهم في كتابنا «شعراء النصرانيّة» تمهّد لنا الطريق للحكم بنصرانيّتهم امّا بتاتاً وامّا ترجيحاً فها نحن نستقري ذكرهم على سياق قبائلهم التي انتسبوا اليها

اوّلًا قبائل ربيعة

قبائل ربيعة كثيرة العدد كانت تسكن في الجهات الممتدّة بين الفرات والخابور الى انحاء العراق. وبنو ربيعة على اختلاف قبائلهم يتصلون بربيعة بن نزار جدّهم الأعلى. وفي ربيعة خصوصاً انتشر الدين النصراني كما روى كثيرون من كتبة المسلمين كابن قتيبة وابن رسته والقاضي صاعد الاندلسي والفيروزابادي (راجع اقوالهم في الصفحة ١٣٠). ولا تجد في ما يُروى من شعرهم اثراً للشرك وعبادة الاصنام وفيه على خلاف ذلك من الاقوال في التوحيد وتُقى الله ومدح الفضيلة ما يدلُّ على تأثير التعاليم النصرانيّة في قلوبهم اذ كانوا مخالطين في انحائهم بالسيّاح واديرة الرهبان والكنائس. ويتردَّد اكثرهم على ملوك الحيرة المتنصّرين ويمدحونهم. وثبتت النصرانيّة في ربيعة مدّة بعد الاسلام وقد ذكر في الاغاني (٢٠: ١٢٧): «نصارى بعض احياء ربيعة في عهد بني اميّة».

١ شعراء تغلب

لا نظنّ انّ احداً ينكر علينا نصرانيّة تغلب مع اتّفاق الكتبة القدماء على اعتصامها بالدين المسيحي وذلك قبل الهجرة بزمن طويل يمكن ترقيته الى ما وراء

ن الخامس للميلاد الى عهد السيّاح والرهبان الذين ازهروا في الجزيرة في القرن اربع للمسيح . د مرّت لنا الشواهد على ذلك في القسم الاوّل . ومن ثمَّ لا حاجة الى اثبات نصر . شعراء تغلب الذين نظمناهم في سلك كتابنا شعراء النصرانيّة وهم ثمانية هذه اسماؤهم على ترتيب ذكرهم في الكتاب مع الاشارة الى الصفحات التي وردت فيها اخبارهم :

١ كليب وائل	(شعراء النصرانيّة ص	١٥١–١٥٩)
٢ المهلهل اخو كليب	«	١٦٠–١٨١
٣ السفّاح التغلبيّ	«	١٨٢–١٨٣
٤ الاخنس بن شهاب	«	١٨٤–١٨٧
٥ جابر بن حُنَيّ	«	١٨٨–١٩١
٦ افنون صريم بن مَعشَر	«	١٩٢–١٩٤
٧ عُمَيْرة بن جُعَيْل	«	١٩٥–١٩٦
٨ عمرو بن كلثوم .	«	١٩٧–٢٠٤

فهؤلاء كلهم سواء صرَّحوا بدينهم النصراني كما ترى في ترجمة جابر بن حُنَيّ ام سكتوا عنها فلا شكّ بنصرانيَّتهم

٢ شعراء بكر

انَّ نصرانيَّة بني بكر ثابتة كنصرانيَّة تغلب وكانت كلتا القبيلتين ساكنة في الجزيرة متجاورةً في ديار بكر وديار ربيعة وهما ترتقيان الى اصل واحد الى وائل ومنهُ الى ربيعة بن نزار وتدينان بدين واحد وكلّ من ذكر نصرانيَّة تغلب اضاف اليها بكرًا كما روينا سابقاً . هذا مع ما حصل بين القبيلتين من النزاعات والحروب اخصّها حرب البسوس كما يجري غالباً من المنافسات والضغائن بين الاقارب . وبكر قبيلة كبيرة كتغلب تتفرَّع الى فروع عديدة كضُبَيْعَة وشيبان ومرَّة ويشكر وعجل وقد اتينا في باب القبائل المتنصّرة بذكر هذه الفروع

١ ﴿ بنو ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ﴾ ذكرنا منهم في شعراء النصرانيَّة هؤلاء الثمانية الآتين :

١ سعد بن مالك بن ضبيعة	(شعراء النصرانيَّة ص	٢٦٤–٢٦٧)
٢ جحدر بن ضبيعة	«	٢٦٨–٢٦٩

٣ عمرو بن سعد بن مالك (المرقش الأكبر)	«	٢٨٢–٢٩٢
٤ ربيعة بن سفيان بن سعد (المرقش الاصغر) ...	«	٣٢٨–٣٢٩
٥ طرفة بن العبد بن سفيان بن حرملة بن سعد	«	٢٩٨–٣٢٠
٦ الخرنق اخت طرفة	«	٣٢١–٣٢٧
٧ عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد	«	٢٩٣–٢٩٧
٨ المسيّب بن علس ... بن مالك بن ضبيعة	«	٣٥٠–٣٥٦

فكل هؤلاء متقاربو العهد بينهم والشجةُ رحم من سلالة واحدة. وقد صرّح في كتاب الاغاني (٥: ١٩١) تخرُّج المرقّش الاكبر على نصارى الحيرة وذكرنا في شعراء النصرانيّة استشهادهُ بزبور داود:

وكذاك لا خيرٌ ولا شرٌّ على احدٍ بدائمْ
قد خُطَّ ذلك في الزبو رِ الاوليَّات القدائمْ

وطَرَفة بن العَبد كان ابن حفيد المرقّش الاكبر وابن اخي المرقش الاصغر. وورده امُّ طرفة كانت اخت جرير بن عبد المسيح المعروف بالمتلمّس فكفى بهذه القرابة دليلًا على نصرانيّة طرفة. وعيشة طرفة والمتلمّس في الحيرة بين النصارى ودخولهما على ملكها النصراني عمرو بن هند ممّا يؤيد ذلك. وفي شعر طرفة تنويهٌ بخلود النفس والحساب كقوله:

فكيف يرجّي المرء دهرًا مخلَّدًا واعمالهُ عمّا قليلٍ تحاسبُهْ

وتصريحٌ بحكم الله المطلق على الانام:

انَّ الله ليس لحكمهِ حكمُ

وبكمال اعماله تعالى:

وما قد بناهُ الله تمَّ تمامُهْ وما قد بناهُ الله فالله ماحِقُهْ

وهو القائل في الحضّ على الخير والحياد عن الشرّ:

الخيرُ خيرٌ وان طال الزمان بهِ والشرُّ اخبثُ ما أوعيتَ من زادِ

وله في مودّتهِ لاهل الدين:

سأصرفُ نفسي عن هوى كلّ غادرٍ وأعرضُ عن أخلاقهِ وأخارقُهْ
واجعلُ اهل الدين اهل مودّتي ليعلمَ اهل الفضل مَن انا وائقُهْ

وكان عمرو بن قميئة من قرابة المرقّشين الاكبر والاصغر وطرفة وهو الـذي رافق امرء القيس في سفرهِ الى القيصر ملك القسطنطينيّة . وفي اخبارهِ ما يدلّ على ابتعـادهِ عن الدناءة والاثم كيوسف الحسن والتجائهِ الى نصارى الحيرة فرارًا من التهمة الباطلة . وهذا كلّهُ ممّا لا يدع شبهةً في نصرانيّتهِ

وكذلك المسيّب بن علس من ندماء ملك الحيرة عمرو بن هند كطرفة والمتلمّس وكان خال الاعشى الكبير . وهو القائل يدعو بني عامر الى تُقى الله :

ألا تتقون الله يا آل عامرٍ وهل يتّقي الله الأبلُّ المصمّمُ

٥ ﴿شعراء شيبان﴾ شيبان احد بطون بني ثعلبة بن عكابة المذكورين في تواريخ الروم والسريان كنصارى العرب يدعونهم (ܬܥܠܒܝܐ Thalabenses) ويذكرون لهم اسقفةً) راجع المكتبة الشرقيّة للسمعاني ١ : ٢٦٥ ومقدّمتهُ في الجزء الثاني CXI) وقد ذكرنا من شعرائهم اربعةً وهم :

١ جسّاس بن مرّة بن ذهل بن شيبان	(شعراء النصرانية	٢٥١-٢٤٦
٢ جليلة اختهُ	«	٢٥٣-٢٥٢
٣ عبد المسيح بن عسلة	«	٢٥٥-٢٥٤
٤ بسطام بن قيس . . بن ذهل بن شيبان	«	[illegible]-٢٥٦

جسّاس هو قاتل كُليب وائل صهرهِ زوج اختهِ جليلة وكان طليعة قومهِ في حرب البسوس . ونصرانيّتهُ ثابتة من عدّة وجوه ١ً من انتسابهِ الى شيبان . ٢ً من قرابتهِ الى بني تغلب . ٣ً من اعترافهِ بالاله الحقّ وبالبعث في حلفهِ حيث يقول :

انّي وربِّ الشاعرِ النزورِ وباعثِ الموتى من القبورِ

ولهمّام اخي جسّاس شعر في المفضّليّات . ولا حاجة لبيان نصرانيّة عبد المسيح بن عسلة فانّ اسمهُ يشهد لهُ . وقصيدتهُ المرويّة هنا قد طُبعت مؤخّرًا في جملة المفضّليات (ed. Lyall, p. ٥٥٦) ولم يُذكر هناك عن نسب قائلها الّا كونهُ اخا بني مرّة ابن همّام بن مرّة بن ذهل بن شيبان *

امّا بسطام بن قيس بن مسعود فهو احد فرسان بني شيبان المعدودين في الجاهليّة . قال ابن قيم الجوزيّة في اخبار النساء (ص ٩٨) كان بسطام فارسًا جوادًا عفيفًا . وقال ابن عبد ربّهِ في العقد الفريد (٢ : ٦٧) : قد ربّع الذهليّين والالهازم اثني عشر مرباعًا .

أمّا نصرانيّة بسطام بن قيس فقد جاهر بها ابن دريد في الكامل (ص١٣٠) وابن عبد ربّهِ ايضاً في العقد (٣: ٨٨) في اخبار يوم الغَبيط وقد ورد هنالك اسم الحنيف مع اسم النصراني حيث قال: «ونادى القوم نجَّاداً اخا بسطام كُرَّ على اخيك وهم يرجون ان يأسروهُ فناداهُ بسطام: ان كررتَ فانا حنيف وكان بسطام نصرانيًّا فلحق نجاد بقومهِ» . وقد جاء في الاغاني (١٩: ١٨) ذكر زيق بن بسطام فقال عنهُ انهُ كان نصرانيًّا وذكر ابنتهُ حدراء (١٩: ١٢) قال: «تزوَّجها الفرزدق وكانت نصرانيَّةً» .

٣ ﴿ قيس بن ثعلبة ﴾ اخو شيبان بن ثعلبة. اليهِ ينتسب الحارث بن عبَّاد بن ضبيعة رئيس بني بكر في حرب البسوس بعد اعتزالهِ الحرب مدَّةً الى ان قُتل ابنهُ بجير. ونصرانيَّتهُ تثبت بنصرانيَّة شيبان لأنّ شيبان وقيساً كليهما ابنا ثعلبة بن عكابة

راجع اخبار الحارث في شعراء النصرانيَّة (ص ٢٧٠-٢٨١)

٤ ﴿ يشكر بن بكر ﴾ حيٌّ كبير من بكر بن وائل يدين بدينها ذكرنا منهُ ثلثة شعراء مُجيدين:

١ الحارث بن حِلِّزة	(شعراء النصرانيَّة	٦١٦-٦٢٠)
٢ المنخّل اليشكري	«	٦٢١-٦٢٤
٣ سويد بن ابي كاهل	«	٦٢٥-٦٣٦

الحارث بن حلزة هو الذي دافع عن قومهِ عند عمرو بن هند ملك الحيرة بمعلقتهِ الهمزيَّة المشهورة مناقضاً لمعلقة عمرو بن كلثوم. وبها وقع الصلح بين بكر وتَغلب وكان المنخَّل اليشكري من ندماء ملك الحيرة النصراني النعمان بن منذر . امّا سُوَيد بن ابي كاهل فادرك الاسلام ولم يذكر احد اسلامهُ ومن شعرهِ الدالّ على دينهِ قولهُ من عينيَّتهِ الشهيرة

كتب الرَّحمانُ والحمدُ لهُ … سعةَ الاخلاقِ فينا والضَّلَعْ
وإباءً للدنيّات اذا … أُعطيَ المكثورُ ضيماً فكَنَعْ
وبناءً للمعالي إنّما … يرفعُ اللهُ ومن شاء وضعْ
نِعَمٌ للهِ فينا ربَّها … وصنيعُ اللهِ واللهُ صنعْ

٥ ﴿ علي بن بكر ﴾ ذكرنا شاعرين من بني عليّ بن بكر بن وائل وهما :

١ فند الزمّاني	شعراء النصرانيَّة	ص ٢٦١-٢٦٥)
٢ اعشى قيس بن ثعلبة	«	٣٥٧-٣٩٩

كان فِند الزِّمّاني سيّد بكر في زمانهِ وشهد حرب البسوس وحارب مع بني بكر ورثيهم الحارث بن عبّاد وهو من نصارى اليامة . وقد روينا شعرهُ في تلك الأيام

والشهر منهُ ميمون بن قيس وهو الاعشى الكبير . وقد نظمناهُ بين الشعراء النصارى ليس فقط لانتمائهِ الى بني بكر النصارى بل لاسباب اخرى منها . ١ً تحرُّجهُ على العباديين ورأيهُ بآرائهم . قال في الاغاني (٨ : ٧٩) : «كان الأعشى قَدَريًّا (اي يقول بحرّيّة الانسان في اعمالهِ) . . . اخذ مذهبهُ من قبل العباديين نصارى الحيرة كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقّنوهُ ذلك » . ٢ً وكان راوية الاعشى يحيى بن متّى النصرانيّ العباديّ . ٣ً زيارة الاعشى لنجران وكنيستها المعروفة بكعبة نجران ولاساقفتها وامرائها النصارى . قال يكلم ناقتهُ :

وكعبةُ نجرانَ حتمٌ عليكِ ... حتّى تُناخي بأبوابها
تزورُ يزيدًا وعبد المسيح ... وقيسًا هم خيرُ اربابها

٤ً تجوُّلهُ في البلاد النصرانيّة كحمص واورشليم قال :

وقد طُفت للمالِ آفاقهُ ... عُمانَ فحمصَ فاوريشلِمْ
فنجرانَ فالسَّرْوِ من حِميرٍ ... فأيّ مُرامٍ لهُ لم ارمْ

٥ً ايمانهُ بالبعث والحساب كقولهِ :

اذا انتَ لم ترحَلْ بزادٍ من التُّقى ... ولاقيتَ بعد الموت مَنْ قد تزوّدا
ندمتَ على ان تكون كمثلهِ ... فترْصد للأمر الذي كان ارصدا

٦ً اقتباساتهُ الشعريّة من العادات النصرانيّة كحلفهِ بأسكيم الرهبان :

فانّي وثوبَيْ راهبِ اللُّجِّ والتي ... بناها قُصيٌّ والمضاضُ بن جرهمِ

قال البكري في معجم ما استعجم (٤٨٩) : اللجّ غدير عند دير هند وقيل انهُ اراد المسيح عليهِ السلام . . ويروى : «وثوبي راهب الطور» . والتي بناها قُصيّ يعني مكّة» . وهذا كما حلف عديّ بن زيد «بربّ مكّةَ والصليب» وحلف الاعشى ايضًا بمثل ذلك فقال :

وانّي وربِّ الساجدين عشيّةً ... وما صكَّ ناقوسَ النصارى ابيلُها

وللاعشى في وصف هياكل النصارى وصلبانها وصورها :

فما مُثْلٍ في هيكلٍ مبكلِ بناهُ وصلّب فيه وصارا

٧ ذِكرهُ للانبياء واحداث الاسفار المقدّسة كقولهِ في نوح وفلكهِ :

جزى الالهُ اياساً خير نعمتهِ كما جزى المرء نوحاً بعد ما شابا
في فُلكهِ اذ تبدّاها ليصنعَها وظلّ يجمع ألواحاً وابوابا

وقد روينا لـهُ ابياتاً في داود النبي وفي سليمان الحكيم وفي المنّ والسلوى وغير ذلك ممّا يدلُّ على معرفتهِ للاسفار الكريمة

٨ ويؤيد ذلك ذكرهُ لفصح النصارى ومدحهُ لهوذة بن علي الذي فكّ اسرى تميم في ذلك العيد فقال :

بهم يقرّبُ يوم الفِصْحِ ضاحيةً يرجو الالهَ بما اسدى وما صنعا

وكلّ هذه الشواهد لا يمكن تعليلها الّا بان يقال انهُ كان يدين بالنصرانيّة ٠ وقد ذهب الى هذا القول المستشرق ولهوزن حيث قال Wellhausen : *Reste arab. Heidentums*, p. 233 • يظهر انّ احد شعراء الجاهليّة المدرسيّين الاعشى قد كان نصرانيًّا • (Einer der klassischen Dichter der Gâhilija, al-A'cha, soll Christ gewesen sein)

٣ ربيعيّون آخرون

اربعة شعراء من ربيعة من غير قبائل بكر وتغلب روينا شعرهم وهم :

١ البرّاق بن روحان	(شعراء النصرانيّة	ص١٤١–١٤٧)
٢ ليلى العفيفة زوجتهُ	«	١٤٨–١٥٠
٣ جرير بن عبد المسيح (المتلمّس)	«	٣٢٠–٣٦٩
٤ المثقّب العبديّ	«	٤٠٠–٤١٥

هم من احياء مختلفة لا شكّ في نصرانيّتهم ٠ فالبرّاق كما ورد في جمهرة انساب العرب للكلبيّ كان من قرابة المهلهل التغلبيّ وتخرّج على راهب فتعلم منهُ تلاوة الانجيل ولعلّ دير ابن برّاق الـذي ذكرهُ ياقوت في معجم البلدان اليه ينتسب ٠ والمتلمّس ينتمي الى ضُبيعة بن ربيعة بن نزار وكفى باسمهِ • جرير بن عبد المسيح • دليلًا على دينهِ ٠ نادم مدّة عمرو بن الهند ثمّ ربمنهُ الى الشام واجتمع باهلها النصارى وفي ذلك يقول :

حنَّت قلوصي بها والـليلُ مطَّرقٌ بعد الهدوّ وشاقتْـها النواقيسُ

وهو القائل عن تقى الله :

وأعلمُ علمَ حقٍّ غير ظنٍّ وتقوى الله من خير العتادِ

امَّا المثقِّب العبدي فكان من اسد بن ربيعة يرتقي اليهـا بعبد القيس بن افصى التي سبق لنا ذكر شيوع النصرانيّة بينها . كان ابوه محصن بن ثعلبة سيّدًا خطيرًا واحد السُّعاة بالصلح بين بكر وتغلب كما قال المثقّب :

ابي أصلح الحيَّيْنِ بكرًا وتغلبًا وقد أرعشتْ بكرٌ وخفَّ حلومُهـا

والمثقب دخل على ملوك الحيرة فمدح منهم عمرو بن هند والنعمان بن قابوس

ثانياً شعراء اياد

اياد بن نزار اخو ربيعة . تشعَّبت منهُ احياء وفروع متعدّدة شاركوا ربيعة في نصرانيَّتهم كما شهد على ذلك كتبة مسلمون فضلاء كابي نصر الفارابيّ والبكري وابن دريد (اطلب نصوصهم في الصفحة ٢٤) وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان اديرةً بناهـا بنو اياد كدير السّوا ودير قرّة . وفي اخبار البلـد الحرام للفاسيّ (ص ١٣٧) انَّ كاهناً من اياد اسمهُ وكيع بن سلمة ابتنى صرحاً ليناجي فيه الله . قال بشر بن الحجر (البيان والتبيين للجاحظ ١ : ١٩٠) :

ونحنُ ايادٌ عبادُ الالهِ ورهطُ مُناجيهِ في السُّلَّمِ

واشهر من عُرف من شعرائهم شاعران ذكرناهما في كتابنا :

١ قس بن ساعدة	(شعراء النصرانيّة	ص ٢١١–٢١٨)
٢ اميّة بن ابي الصَّلْت	«	٢١٩–٢٣٧

قس بن ساعدة هو خطيب العرب الشهير واسقف نجران لا حاجة الى اثبـات نصرانيَّتهِ . وصفهُ الجارود النصراني العبقسيّ لمحمَّد بما رويناهُ هناك (ص ٢١١). هذا مع ما دخل في اخبارهِ من الاقاصيص الغريبة التي رويناها على علّاتها

امَّا اميّة بن ابي الصَّلْت وهومن ثقيف بها يرتقي الى اياد فيمكننا بيان نصرانيَّتهِ بالادلّة الآتية : ١ كونهُ من إياد التي اثبتنا نصرانيَّتها وافتخارهُ بمآرف قومهِ لاسيا

الكتابة وفنّ الكتابة كما سبق تعلّمهُ العرب من النصارى:

قومي إيادٌ لو أنّهم أمَمٌ ولو اقاموا فتُهزَلَ النَّعَمُ
قومٌ لهم ساحةُ العراق اذا ساروا جميعاً والقطُّ والقَلَمُ

٢ كان امية من الحنفاء وقد سبق (ص ١١٨–١١٩) انّ الحنيفيّة في الجاهليّة يُرَاد بها النصرانيّة او شيعة من شيعها واتينا على ذلك بشواهد اسلاميّة . ٣ اطلاعهُ على الاسفار المقدّسة والانجيل ودرسهُ لها (الاغاني ٣ : ١٨٧) . ٤ دخولهُ كنائس النصارى واجتماعهُ برهبانها (ص١٨٨) . ٥ معرفتهُ لأُلغة السريانيَّة لغة نصارى العراق . قال ابن دريد في تاج العروس (٣ : ٢٨٦) : « كان امية يستعمل السريانيَّة كثيرًا لأنهُ كان قد قرأ الكتب » . ٦ في شعره من مقتبسات الكتب المقدَّسة ما تفرَّد به كعدي بن زيد . فانّ لهُ اوصافاً عديدة للاحداث الكتابيَّة وللعقائد الدينيَّة كوصفه الجليل للعزَّة الالهيَّة والملائكة والديَنونة والجحيم والنعيم وبشارة العذراء ومولد المسيح العجيب مما يدلُّ صريحاً على تنصُّرهِ . على أننا نقرُّ بانَّ في اخبارهِ اضطراباً لبُعد عهد الرواة عن زمانهِ

ثالثاً شعراء مضر

لم تنتشر النصرانيَّة في مضر بن نزار وقبائلهِ انتشارها في قبائل اخويهِ ربيعة واياد على أننا وجدنا ايضاً عدَّة آثار تنبئ بدخول النصرانيَّة في احياء كثيرة منها كبني عُقَيل الذين غلبت عليهم النصرانيَّة وبني تميم وعبس وذبيان وقيس عيلان وناجية . وقد اوردنا على ذلك شواهد في ما سبق في باب القبائل المتنصّرة وذكرنا بعض الاديرة المشيَّدة بينها

١ بنو تميم

روينا اخبار واشعار خمسة منهم اعني :

١ عدي بن زيد	(شعراء النصرانيَّة	ص ٤٣٩–٤٧٤)
٢ الاسود بن يعفر	«	٤٧٥–٤٨٥
٣ سلامة بن جندل	«	٤٨٦–٤٩١
٤ اوس بن حجر	«	٤٩٢–٤٩٧
٥ علقمة الفحل	«	٤٩٨–٥٠٩

عديّ بن زيد باقرار كلّ الكتبة كان نصرانياً من اسرة نصرانيّة في خدمة ملك نصرانيّ من ملوك الحيرة. وفي شعرهِ من الآثار الدينيّة ما لم يُروَ عن غيرهِ الّا عن اميّة بن ابي الصلت. ففيهِ روايات من الاسفار المقدّسة. وقد حلف بالشبّر اي القربان وبالصليب. وفي اخبارهِ ذكر دخولهِ الكنائس الى غير ذلك

وكان الاسود بن يعفر التميمي من سادة قومهِ ونادم النعمان كعدي بن زيد وعاش بين نصارى الحيرة وكانت بنو عجل النصارى اخوالهُ

وكذلك سلامة بن جندل الذي نشرنا ديوانهُ سنة ١٩١٠ فانهُ كالاسود بن يعفر عاش في جهات الحيرة التي كانت عمّت النصرانيّة كلّ انحائها وعاشر قوماً من النصارى كتغلب والعباديّين وفي شعرهِ تلميحٌ اليهم. ولا اثر لكليهما في قصائدهما الى شيءٍ من الشرك وعلى خلاف ذلك. وردت في شعر سلامة تشابيه واشارات نصرانيّة كذكرهِ لداود النبي وتنويه بمخطوطات النصارى المنمّقة وعلابس العباديّين

وقد جعلنا ايضاً اوس بن حجر في جملة النصارى وهو احد الذين اطلقهم من الاسر بسطام بن قيس رئيس شيبان النصرانيّ بعد ظفرهِ بتميم فمدحهُ اوس لكرمهِ. ومن تشابيه النصرانيّة قولهُ يشبّه لمع رمحهِ بمصباح رئيس النصارى يوم عيد الفِصح :

عليهِ كمصباح العزيز يشبُّهُ لِفِصحٍ ويحشوهُ الذُبال المُفتّلا

وعلقمة بن عبدة التميمي كان مدّاحاً لملوك غسّان النصارى ولهُ مُحاضرات مع امرئ القيس والزبرقان بن بدر الشاعرَين النصرانيّين. وفي شعرهِ اشارة الى كأس قربان النصارى ومفعولها الصالح دون الأذى بشاربها قال في وصفها :

كأسُ عزيزٍ من الاعنابِ عتّقها لبعض احيانها حانيّةٌ حومُ
تشفي الصداعَ لا يؤذيك صالبُها ولا يخالطُها في الرأس تدويمُ

قال الشارح : « العزيز كبير النصارى وقولهُ « لبعض احيانها » اي اعدّها لفصحٍ او لعيدٍ »

٣ عبس وذبيان

عبس وذبيان ابوهما بغيض بن غطفان يتّصلان بهِ الى الياس بن مضر بن نزار وقد

وقعت بينهما حروب كما جرت بين بكر وتغلب وقد نوَّهنا بولوج النصرانيَّة في احيائهما (ص ١٣٤) وقد ذكرنا من عبس اربعة شعراء :

١ الربيع بن زياد	(شعراء النصرانيَّة ص	٧٨٧-٧٩٣)
٢ عنترة بن شدّاد	«	٧٩٤-٨٨٢
٣ عروة بن الورد	«	٨٨٣-٩١٦
٤ قيس بن زُهَيْر	«	٩١٧-٩٣٢

ومن ذبيان اوردنا ترجمتي وقصائد شاعرين وهما :

١ النابغة الذبياني	«	٦٤٠-٧٣٢
٢ الحصين بن الحمام	«	٧٣٣-٧٤٥

الربيع بن زياد احد اعيان بني عبس كان من ندماء النعمان بن المنذر ملك الحيرة مع سرجون بن توفيل وغيره من النصارى كما روى صاحب الاغاني وفي ذلك دليل على انه يدين بدينهم وفي اخباره ادلة على توحيده وكرم أخلاقه

أمّا عنترة فكانت امّهُ حبشيَّة والحبش نصارى كما هو معلوم ٠ وفي شعره الصحيح والمصنوع آثار عديدة دالَّة على توحيده وآدابه ودينه ٠وفي ذلك ما يدلُّ على نصرانيَّته لأنَّ التوحيد قبل محمَّد لم يشع في جزيرة العرب الّا بفضل النصرانيَّة ٠وزد على ذلك انهُ كان في خدمة الملك زهير وابنه قيس النصرانيَّين

وكذلك عروة بن الورد موحّدٌ في شعره ولهُ في اخباره من اعمال الرحمة على الفقراء والمبؤوسين ما لا يُعهد مثلهُ الّا عند من ربوا على التعاليم النصرانيَّة فدُعي لذلك عروة الصعاليك وشعرهُ ايضاً يخلو من كل شرك

أمّا قيس بن زهير فكان ابوهُ حليف ملوك [illegible]رة صاهرهُ النعمان فتزوَّج ابنتهُ لشرفه وسؤدده ٠ وقد روى ابن الاثير في تاريخه (١ : ٢٤٢) : انهُ بعد حرب داحس والغبراء « تاب الى ربّه فتنصَّر وساح في الارض حتَّى انتهى الى عمان فترهَّب »

وفي شعر النابغة عدَّة آثار منبئة بتوحيده وتديُّنه وتقاهُ ٠وقد مدح ملوك غسَّان والمناذرة النصارى وفي ملوك غسَّان يقول :

مجلَّتهم ذات الالـه ودينُهم قويمٌ فما يرجون غير العواقب

وهو مديحٌ لا يقولهُ شاعر ما لم [illegible]ن بدينهم ٠وقد ذكر صليب الزوراء في مدحه للنعمان ملك الحيرة النصرانيّ :

ظلّت تقاطيع أنعام مؤبّلة لدى صليبٍ على الزوراء منصوبِ

وقال يذكر المصلّين من الرهبان الذين رافقوا جنازة الملك الغسّاني النعمان بن الحارث ابن ابي شِمْر:

فآبَ مصلّوهُ بعينٍ جليّةٍ وغودر بالجولان حزمٌ ونائلُ

ومن آثار عفّتهِ الشاهدة له على دينهِ النصراني وايمانهِ بالآخرة قوله:

حياكِ ربّي فانـا لا يَحِلُّ لنا لهوُ النساء وانّ الدينَ قد عزما
مشمّرين على خُوصٍ مزمّمةٍ نرجو الالهَ ونرجو البرَّ والطُّعما

وفي اعتقادهِ لعزّة الله وجلالهِ يقول:

حلفتُ فلم اترك لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرء مذهبُ

وقد ذكر في شعرهِ الانبياء كداود وسليمان. كقولهِ في داليّتهِ التي مدح بها النعمان:

الّا سليمان اذ قال الالهُ لهُ قُم في البريّة فازجُرها عن الفَنَدِ
فمن أطاعك فانفعهُ بطاعتهِ كما اطاعك وادلُلْهُ على الرشدِ

وكان الحصين بن الحمام ذبيانياً ايضاً . وفي ترجمتهِ انهُ كان يؤمن بالله ويقرّ بالبعث وبعواقب الانسان من نعيم وجحيم فقال من ابيات وهو نعم القول (اغاني ١٢ : ١٢٨)

فلم يبقَ من ذاك الّا التُّقى ونفسٌ تعالج آجالها
امورٌ من الله فوق السماء مقاديرُ تنزلُ إنزالها
اعوذُ بربّي من المخزيات يوم ترى النفسُ أعمالها
وخفّ الموازينُ بالكافرين وزُلزلت الارضُ زلزالها
ونادى منادٍ باهل القبور فهبّوا لتُبرزَ أثقالها
وسُعّرت النارُ فيها العذابُ وكان السلاسلُ اغلالها

ومن بني قيس عيلان من غير عبس وذبيان ذو الاصبع العدواني ينتمي الى عدوان بن عمرو بن سعد بن عيلان. وقد آنسنا في شعرهِ من الآداب والحكم ما حملنا على الترجيح بنصرانيتهِ مع خلوّهِ من كل اثر للشرك. فهو يذكر الله وقدرتهُ على كلّ ما يشاء. وفي قومهِ عدوان قد أحصى سبعون الف غلام أغرل. كما روى

صاحب الاغاني عن الاصمعي (٣: ٢) وقد رأينا في اسمائهم المختانة اثرًا لنصرانيّتهم

٣ شعراء هوازن

هوازن يرتقي نسبُها الى خصفة بن قيس عيلان بن الياس بن مضر ادرجنا اثنين من شعرائها في جملة شعراء النصرانيّة وهما :

١ كعب بن سعد الغنوي	(شعراء النصرانيّة	ص٧٤٦–٧٥١)
٢ دريد بن الصمّة	«	٧٥٣–٧٨٣

في شعر كعب بن سعد من الحكم والعواطف الليّنة والحنان ما دفعنا الى ضمّهِ الى شعراء النصرانيّة . ثم انّ اخاهُ ابا المغوار قُتل في حرب ذي قار التي كان اكثر محاربيها من القبائل النصرانيّة

أمّا دريد بن الصمّة فانهُ كان سيّد قومهِ بني جُشم وفارسهم ادرك الاسلام وحارب محمّدًا وانصارهُ يوم حنين . وفي شعرهِ من الايمان بالله وذكر الانبياء ما ينفي عنهُ الشرك ويدلُّ على انهُ اخذ ذلك عن النصارى . وكان اخوهُ يدعى عبدالله وفي اسمهِ شاهد على دينهِ . وقد مدح في شعرهِ بني الديّان نصارى نجران

٤ مضريّون آخرون

هم اربعة نظمناهم في سلك كتابنا يرتقي نسبهم الى الياس بن مضر بن نزار :

١ زهير بن ابي سلمى	(شعراء النصرانيّة	ص٥١٠–٥٩٥)
٢ عبيد بن الابرص	«	٥٩٦–٦١٥
٣ ورقة بن نوفل	«	٦١٦–٦١٨
٤ زيد بن عمرو بن نُفَيل	«	٦١٩–٦٢٢

زهير صاحب المعلّقة الميميّة الشهيرة ومادح السيّدين الحارث بن عوف وهرم بن سنان اللذين سعيا باصلاح قبيلتي عبس وذبيان بعد حرب داحس والغبراء . كان مؤمنًا بالله وبيوم الدين والحساب ومن اقوالهِ في ذلك قولهُ للمتحاربين ليتركوا كلَّ ضغينة :

فلا تكتُمُنَّ الله ما في صدوركم ليَخفى ومهما يُكتَمِ الله يَعلَمِ
يؤخَّرْ فيوضَعْ في كتابٍ فيُدَّخرْ ليوم الحساب او يُعجَّلْ فيُنقَمِ

وقال ايضاً :

بدا ليَ انَّ الله حقٌّ فزادني الى الحقِّ تقوى الله ما كان باديا

وهو القائل :

تزوَّد الى يوم المماتِ فانَّهُ ولو كرهتْهُ النفسُ آخرُ موعدِ

وقدَّمنا انَّ الايمان بالله وبالحساب قبل الاسلام يُشعر بنصرانيَّة قائلهِ . وهو ينسب الى الله في شعرهِ الحكم في خلائقهِ مع وجودهِ الى الابد . وكذلك اشار في قصائدهِ الى امور من الكتاب المقدَّس كذكرهِ لفرعون وداود

عبيد بن الابرص احد الشعراء الوافدين على ملوك غسَّان وكندة النصارى وقد مدحهم بشعرهِ . وفي ديوانهِ ما ينبئ بتوحيدهِ وتقاهُ واعتقادهِ بالآخرة . كقولهِ في بائيَّتهِ الشهيرة :

مَنْ يسألِ الناسَ يحرموهُ وسائلُ الله لا يخيبُ
بالله يُدرَكُ كلُّ خيرٍ والقولُ في بعضهِ تلغيبُ
والله ليس لهُ شريكٌ علَّامُ ما اخفتِ القلوبُ

وكثيرًا ما ينسب اليهِ تعالى القدرة والبقاء والعلم . فمن قولهِ :

وليَفنيَنَّ هذا وذاك كلاهما الَّا الالهَ ووجهَهُ المعبودا

وذكر ايضاً في شعرهِ النبيَّ داود

امَّا ورقة بن نوفل فلا خلاف في نصرانيَّتهِ فانَّ عامَّة الكتبة المسلمين يقرُّون بذلك كابن قتيبة في المعارف وابن هشام في سيرة الرسول وقد روينا ما قالهُ ابو الفرج الاصفهاني في الاغاني . ومثلهُ ابن الاثير في اسد الغابة (٥ : ٤٣٦) قال « ان ورقة كان امرأ تنصَّر في الجاهليَّة يكتب الكتاب العبرانيَّ ويكتب من الانجيل ما شاء الله ان يكتب » وكان ورقة ابن عمّ خديجة زوجة رسول الاسلام . وفي شعرهِ ما يثبت صحَّة دينهِ

امَّا زيد بن عمرو بن نُفَيل فيقال عنهُ انهُ خلع عبادة الاوثان واجتمع بالاحبار والرهبان وضرب في البلاد يطلب الحنيفيَّة دين ابرهيم . وعندنا انَّ هذه الحنيفيَّة هي احدى شيع النصارى . ولو قابلتَ بين شعرهِ وشعر ورقة وجدت بينهما شبهاً تامًّا في كلّ معانيهما وزهدهما وايمانهما بالاله الواحد وبالبعث والخلود للابرار في دار النعيم وللكفَّار في نار الجحيم

رابعاً شعراء اليمن من بني كهلان

في القسم الاوّل من كتابنا خصصنا عدّة صفحات لبيان نفوذ النصرانيّة في اليمن منذ القرون الاولى للنصرانيّة ولاسيّما بعد انفجار سدّ مأرب بين القبائل المتنقلة الى شمالي جزيرة العرب وغربيّها وجنوبها الشرقي فلا حاجة الى تكرار ما اثبتناهُ عن تنصُّر كندة وقضاعة وغسّان والمناذرة . وقد روينا اخبار بعض الشعراء من قبائل يمنيّة اعني كندة ومذحج وطي

١ شعراء كندة

اشعر شعراء كندة بل رأسهم وزعيمهم امرؤ القيس الكندي . روينا اخباره بعد ان قدّمنا عليها اخبار اعمامه

١ اعمام امرئ القيس (شعراء النصرانيّة ص ١–٥)
٢ امرؤ القيس بن حجر « ٦–٦٢

قد سبق لنا في المشرق مقالةٌ مطوّلة رددنا فيها على مزاعم الاب انستاس الكرملي الذي ادّعى ان امرءَ القيس كان مزدكيًّا فكتب عن ذلك فصلين اثبتناهما في المشرق (٨ [١٩٠٥] : ٨٨٦ و ٩٤٩) فابطلنا زعمهُ واثبتنا نصرانيّة امرئ القيس بعشرة براهين (٨ : ٩٩٨–١٠٠٦) : ١ً تفنيدنا لمن زعم انهُ كان وثنيًّا او مزدكيًّا (٩٩٩–١٠٠٢) . ٢ً خلوّ شعرهِ من آثار الشرك وعبادة الاصنام . ٣ً عدّة ابيات من قصائدهِ تصرّح بتوحيدهِ واقرارهِ بالبعث والنشور . ٤ً اشارات واضحة الى شؤون النصارى وعاداتهم ورهبانهم وزبورهم سبق ذكرها . ٥ً انتشار النصرانيّة في كندة قبيلة امرئ القيس كما اعلن ذلك عبد ا ح الكنديّ في معارضتهِ للهاشميّ حيث يذكر شرف كندة ويفتخر بدينها المسيحيّ . ٦ً خروج امرئ القيس الى قيصر الروم يستنجدهُ على قتلة والدهِ حُجر . وما كان امرؤ القيس ليفكّر في ذلك لولا رابطة الدين بينهُ وبين ملك الروم الذي كان في ذلك الوقت يُدعى يوستنيان العريق في دينهِ النصرانيّ . ٧ً كانت عمّة امرئ القيس هندُ بنت الحارث المعروفة بهند الكبرى وهي زوجة المنذر بن ا السماء ووالدة عمرو بن هند التي عمّرت الدير المنسوب اليها في الحيرة وعلّقت علي تابة تدعو فيها نفسها « أمة المسيح وامّ عبدهِ

وبنت عبيدهِ " وبذلك تثبت ايضاً نصرانيّة اعمام امرئ القيس الذين ذكرناهم ٠ ٨ وكذلك امّ امرئ القيس هي فاطمة اخت المهلهل وكليب من قبيلة تغلب النصارى. ٩ وقد روينا في المشرق (٨ [١٩٠٥] : ١٠٠٥) ما نقلهُ فوطيوس في مكتبتهِ عن الاصل اليوناني للمؤرخ نُنُّوز الذي ارسلهُ يوستنيان الملك سفيراً الى الحبشة والى امرئ القيس الكندي ليولّيهُ على مقاطعات فلسطين (١ ٠ وفيها من الشواهد على نصرانيّة امرئ القيس ما لا يُنكر ٠ ١٠ وشفعنا اخبار تلك السفارة بذكر سفارة اخرى رواها المؤرخ بروكوب الشهير في كتابهِ عن الحرب الفارسيّة (Procope, B.P.,1..?0) قال انها عُهدت الى يُليان من قبل ملك الروم الى الحبشة والحميريين ليجعلوا الملك على قبائل معدّ في يد امرئ القيس الذي كان في ذلك الوقت شارداً بين القبائل ويقول عنهُ بروكوب « انهُ كان احد رؤساء القبائل من نسل كريم وذا بطش في الحرب » وقد اثبتنا كلامهُ بالحرف في الاصل اليوناني

٢ً شعراء مَذْحج

مذحج قبيلة يمنيّة كبيرة كانت تسكن جنوبي العرب في جهات نجران وفيها انتشرت النصرانيّة على يد احد دُعاتها الذي يدعوهُ العرب فيمون. ومنها كان شهداء نجران في عهد ذي نؤاس. واليها ينتمي بنو الحارث بن كعب سادة نجران النصارى بُناة الكنائس وكعبة نجران (راجع الصفحة ١٣٩) . وقد اخترنا من شعراء مُذحج ثلثة وهم :

١ الافوه الاودي	(شعراء النصرانيّة	ص٧٠-٧٤)
٢ عبد يغوث	«	٧٥-٧٩
٣ يزيد بن عبد المدان	«	٨٠-٨٨

كان الافوه الاودي سيّد قومهِ وفي شعرهِ من الحكم ما يدلُّ على حصافة رأيهِ وحسن نظرهِ وآدابهِ. ومثلهُ عبد يغوث كان فارساً مغواراً . امّا يزيد بن عبد المدان فكان من اشراف اليمن وسيّد مذحج من بني الديّان الذين مدحهم الاعشى لجودهم وعزّهم. ولا حاجة لاثبات نصرانيّتهم مع شهرتها

١) اطلب اعمال الآباء اليونان (Migne, PP. GG., CIII, col. 46-48)

٣ شعراء بني طيّ

طيّ احدى القبائل اليمنيَّة التي صرَّح كتبة العرب بنصرانيَّتها قال ابن واضح اليعقوبي في تاريخه (١ : ٢٩٨) : « تنصَّر من احياء العرب من اليمن طيّ ومذحج » راجع ادلَّة اخرى اثبتناها في ما سبق (ص١٣٢) وقد اخترنا من شعراء طيّ الاربعة الآتي ذكرهم :

١ حنظلة الطائي	(شعراء النصرانيَّة ص	٨٩–٩٣)
٢ قبيصة بن النصراني	«	٩٣–٩٧
٣ حاتم الطائي	«	٩٨–١٣٤
٤ اياس بن قبيصة	«	١٣٥–١٣٨

حنظلة الطائي هو ذاك الوافد على النعمان يوم بؤسه وفاء بوعده اذ رجع ليُقتَل بعد غيبته . وكان قيامهُ بوعده لاجل دينه النصراني داعياً لتنصُّر النعمان . ومات بعد ان ترهَّب في الدير الذي ابتناهُ على نفقته .

قبيصة بن النصراني احد بني جَرْم المشهورين بنصرانيَّتهم في طيّ . ذكرهُ مراراً ابو تمّام في حماسته . ويدلُّ اسمهُ على دينه .

وكذلك حاتم الطائي نصرانيّ لا شكَّ فيهِ . فانَّ ايمانهُ بالالـه الواحد وبالبعث والنشور واشاراتهُ الى بعض امور النصرانيَّة تثبت امر دينه . وفي سيرته من آثار العفَّة والكرم ما هو موافق للروح النصراني ولعلَّهُ اقتبس من الانجيل قولهُ :

كُلوا اليوم من رزق الاله وأيْسِروا وانَّ على الرحمان رزقكمُ غـدا

وقد صرَّح الكتبة بنصرانيَّة ابنه عدي الذي وفد على محمَّد وقيل انهُ أسلم . وذكر صاحب دائرة العلوم الاسلاميَّة (Encyclopédie de l'Isl: , p. 138) في ترجمة عديّ بن حاتم انَّ الأب والابن كانا نصرانيين . وسبقهُ الى ذلك غانيار (Gagnier) في سيرة محمَّد الافرنسيَّة

أمَّا اياس بن قبيصة فهو ابن اخي حنظلة الذي كان وفاؤهُ داعياً لتنصُّر النعمان . وكانت أمهُ اخت هانئ بن مسعود رئيس بني شيبان النصارى . وكان اياس من اشراف الحيرة . ولم يعدلوا عن دينهم لمَّا ظهر الاسلام فانَّ الطبريّ يخبر في تاريخه (١ : ٢٠١٨) أنهم فضَّلوا دفع الجزية مع البقاء على دينهم النصراني

٤ شعراء كلب

انّ نصرانيّة كلب المنتمية الى قضاعة ممّا لا يختلف فيهِ اثنان (راجع الصفحة ١٣٧ و ١٣٨ من كتابنا) ولم نذكر من هذه القبيلة غير زهير بن جناب الكلبي القضاعي. وَلَّاهُ ابرهة على بكر وتغلب كما روينا (ص ٢٠٦ من شعراء النصرانيّة) وذلك بسبب نصرانيّتهِ ونصرانيّة بكر وتغلب. وكذا يقال عن دخولهِ على ملوك غسّان وبني لخم. وجاء في تذكرة ابن حمدون (نسخة برلين ص ٢١٥) «انّ زهير بن جناب كان سيّدًا مطاعاً شريفاً في قومهِ ويقال كانت فيهِ عشر خصال لم تجتمع في غيرهِ من اهل زمانهِ. كان سيّد قومه وشريفهم وخطيبهم وشاعرهم ووافدهم الى الملوك وطبيبهم (والطبّ في ذلك الزمان شرف) وحازي قومهِ اي كاهنهم وكان فارس قومهِ ولهُ البيتُ فيهم والعدد منهم» ثم يورد وصاتهُ لبنيهِ يحرّضهم فيها على الثقة بالله

وبزهير بن جناب ختام فصلنا هذا الذي قدّمنا فيهِ الدلائل على نصرانيّة الشعراء المذكورين في كتابنا وبهِ ايضاً نجاز كتاب «تاريخ النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة». ونكرّر ما قلنا سابقاً أنّنا (اوّلًا) ذكرنا من شعراء الجاهليّة الذين صرّح الكتبة بدينهم النصرانيّ. (ثانياً) حقّقنا نصرانيّة كثيرين منهم بنصرانيّة قبائلهم وبخلوّ شعرهم من آثار الشرك وبتوحيدهم لله واعتقادهم بخلود النفس والثواب والعقاب وباشاراتهم الى دين النصارى وكلّ ذلك لا يمكن تعليلهُ بين عرب الجاهليّة الّا بنفوذ النصرانيّة. (ثالثاً) اخذنا اسم النصرانيّة بمعناه الواسع سواء كان الشعراء من تبعة المستقيمي الايمان او من شيعهِ الضالّة كالاريوسيّة والنسطوريّة واليعقوبيّة. (رابعاً) لسنا ندّعي انّ هؤلاء النصارى جروا في سيرتهم بكل حرص على نواميس النصرانيّة لاسيّما في امر الطلاق وفي غزواتهم واخذهم بالثأر على خلاف التعاليم النصرانيّة. وانّما تبعوا في ذلك سُنن عرب البادية واقتفوا آثارهم. وتقلّدوا عاداتهم. والعادة كما يُعرف طبيعة ثانية يصعب استئصالها وقهرها. (خامساً) وان وجد احد في بعض اقوالنا شططاً فمعاذ الله ان نكابر الحقّ ان بيّنهُ لنا ارباب الفضل والعلم. وليس الكمال الّا لله

وسنلحق كتابنا هذا ببعض فوائد واصلاحات وفهارس نطبعها على حدة ان شاء الله

مطبوعات شرقية جديدة

W. Riedel : Untersuchengen zu den Tell-el-Amarna - Briefen . *Tübingen*, 1920, *p.* 31

ابحاث في رسالات تلّ العمارنة

هذه الكتابة جديدة بالاعتبار قد خصّها كاتبها في ابحاث مهمّة لتاريخ سوريّة كنّا خضنا فيها في المشرق في كتابنا المعنون بتسريح الابصار (١: ٣١ و ٧٢ - ٨) ومدار هذا التأليف الجديد اوّلًا على بيان بعض المعلومات المنوطة بتاريخ رسالات تلّ العمارنة ثم على تعريف بعض الامكنة المذكورة في تلك الآثار الجليلة . على انّ الامر لا يخلو من الصعوبات . مثال ذلك انّ المؤلف المسيو ريدل يحمل « كتنا » شمالي سوريّة ويزعم انّ تونيب او ذونيب في حصن الأكراد وكنّا سبقنا قبلًا وعرضنا لتعيين هذين المحلّين نواحي دمشق اعني قطنّا قريباً منها وذنبة نحانها . وقد ورد اسم ذنبة على صورة Dennaba في الرحلة المنسوبة الى القديسة سيلفيا . وفي لفظ الاسماء والدلالات الجغرافيّة ما يؤيّد رأينا . وعلى كلّ حال نثني على واضع هذه الابحاث التي نالت له امتيازات اللغة فنهنّئه الاب هـ . لامنس

Der Philosophische und Religioese Subjectivismus Ghazalis . Ein Beitrag zum Problem der Religion *von Dr J. Obermann*

شعوريّة الغزّالي الفلسفيّة والدينيّة

قد كثرت في هذه الحقبة الاخيرة الكتابات والدروس على الإمام ابي حامد الغزّالي فكثيرون من المستشرقين في المانية (لدتسيهر) وفرنسة (كارا دي فو) واميركة (مكدونلد) واسبانية (آسين بلاسيوس) اتّسعوا في تعريف مذهبه وآرائه الدينيّة والفلسفيّة . وقد عُرف الغزّالي كاحد زعماء الصوفيّين واكبر ائمّة في الاسلام ببيان الاتّفاق بين العقل والدين . وقد تقلّب كثيرًا في آرائه وبعد أن عدل مدّة الى الارتياب في كلّ المعارف الوضعيّة التجأ الى مذهب النسك والزهد ليحصل بها على المقامات اللدنيّة ويرتقي منها التوحيد والمعرفة والحلول . وقد ردّ على فلاسفة الاسلام وعلماء علم الكلام والفقهاء في زمانه وأيد الطريقة الصوفيّة وادخل فيها

كثيراً من نسكيات النصارى والهنود. وتآليفهُ عديدة جدًّا اخصّها إحياء علوم الدين وتهافت الفلاسفة ومشكاة الانوار ومقاصد الفلاسفة والمنقذ من الضلال والقسطاس ورياضات النفس وضمّ الدنيا والفقر والزهد وكتاب التوحيد وقطب القلوب الخ. ودرسُ هذه التآليف يستدعي زمناً طويلاً لتعريف آراء الغزالي وادراك مقاصده المتنوّعة. وها هوذا كتاب جديد في ذلك للدكتور اوبرمان من اساتذة كليّة همبورغ دعاهُ بشعوريّة (Subjectivismus) الغزالي يريد به تشييد الغزالي لمذهبهِ الصوفي على اعتقاد الايمان الباطني (Fidéisme) ووحي الله نافياً العلم المبني على الفلسفة النظريّة التي لا يمكنها اثبات الحقائق الدينيّة دون التقرّب الى الله بالزهد. وقد تتبّع صاحب الكتاب المحض مدّعيات الغزالي الفلسفيّة والدينيّة ليبيّن ما تؤدي اليهِ اخيراً من الركون الى النور الداخلي المكتسب بالتوحيد والحلول. فلا شكّ انّ هذا الكتاب من شأنه ان يكشف كثيراً من معمّيات التصوُّف ومذهبهِ الملتبس الذي زيّفهُ كثيرون من الائمّة. وقد احسّ الغزالي بذلك اذ رأى تطرُّف بعض الصوفيين الذين جاهروا بدعوى الاتّحاد مع الله سبحانهُ وتعالى كحسين الحلّاج ويزيد البسطاميّ وفيهم يقول الغزالي: «من نطق بشيءٍ من هذا فقتلهُ افضل في دين الله من إحياء عشرة» ل. ش

Pan-Islam by **G. Wyman Bury**, *Macmillan and Co*, 1919. pp. 212

الرابطة الاسلاميّة

وضع هذا الكتاب المشع احد قدماء المستعمرين من الانكليز الذين اختلطوا بالعالم العربي وعرفوا احوالهُ. بيد انّ المؤلف ربّما استطرد عن الموضوع فخاض في اطرافهِ اكثر منهُ في بواطنهِ. فتراهُ يفصّل حوادث مصر وجزيرة العرب وما جرى في الحرب الاخيرة من الانقلاب السياسي في الحجاز وهو يشعر في مطاوي كلامهِ باعتبارهِ للامير فيصل لكنّهُ يرى غلوًّا ظاهراً في ما كتبتهُ الصحائف الانكليزيّة عن مآثر اهل البادية في الحرب. وفيهم يقول (ص ١٣٢) «انهم مشوا الى الحرب تحت قيادة الضُبّاط الاوربيّين على شبه بنات آوى التي تتبع الأسد لتتغذّي بفضلات صيدهِ» وقال في محلّ آخر (ص ١٣١): «انّ الحجاز لا تقوى مطلقاً على ان تبسط حكمها على أمم ارقى منها حضارةً». وكذلك يقرّ (ص ١٠٠) بانّ كلّ مساعي المبشّرين البروتستانت

ولاسيّما الاميركيين لتنصير المسلمين ذهبت سدًى . وخلاصة القول انّ الذي يطالع هذا الكتاب لا يستفيد منهُ ما اعلن بايضاحهِ في عنوان الكتاب اي بيان الرابطة الاسلاميّة في جهات المعمور لكنّهُ يجتني من مطالعتهِ عدّة معلومات مفيدة علاقتها مع الموضوع بعيدة او قريبة ليس الّا ومن هذا القبيل يستحق الكتاب ان يطالعهُ القرَّاء لاسيّما ان الكاتب خفيف الروح يحسن بسط الامور فيلتذّ القارئ بتسريح النظر في كتابته دون سأم

الاب هنري لامنس

Ad-Daḫirat as-Saniyya: Chronique Anonyme des Mérinides. Texte arabe publié par **Mohammed Ben Cheneb**, *Alger, Bastide-Jourdan*, 1921, *pp.* 232

الذخيرة السنيّة في تاريخ الدولة المرينيّة

هذا التاريخ نشرهُ الاديب محمّد بن شنب من اساتذة مدرسة الجزائر في جملة مطبوعات كليّتها في القسم الآداب منها وهو لكاتب مجهول الّا انهُ كما يظهر قريب العهد من الامور التي يذكرها . والكتاب يشتمل على اخبار احدى الدول التي احتلّت المغرب الاقصى واستولت على مراكش واتّصل ملكها مدّةً الى الجزائر نريد بها دولة بني مرين من قبائل زناتة الراقي اصلها الى ابي محمّد عبد الحقّ الذي انتصر على دولة الموحّدين في اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للمسيح ثم خلفهُ اربعة من اولادهِ ثمّ حفداؤهُ ولم يزل نجمهم في صعود الى ان تقلّص ظلّهم بعد ثلثة قرون فخلفتهم الدولة السعديّة . امّا التاريخ الذي نحن في صددهِ فانهُ يتناول سبعين سنة فقط من اخبار الدولة المرينيّة ويذكر كثيرًا من الامور التي قلما تجدها في غيرهِ عن تلك الانحاء . البعيدةمع ذكر اهمّ الحوادث التي وقعت في غير انحاء الاسلام . وقد علّق ناشر الكتاب عليهِ بعض الحواشي ولاشكّ انهُ سيتبعهُ عن قليلٍ بترجمتهِ الى الافرنسيّة ويقدّم عليهِ المقدّمات المفيدة لتعريف اصلهِ وفصلهِ . وقد اكتفى بان يختم هذا الجزء بفهارس الاعلام للاشخاص والامكنة وجدول قوافي الابيات الواردة في الكتاب

Pierre Guilloux s j. L'Ame de St Augustin. J. de Gigord, éditeur. 15, rue Cassette. Paris, 1921. pp. 384

نفس القديس اوغسطينوس

قليلون هم الرجال العظام الذين طبّق ذكرهم المعمور وحبّر اسمهم على تقلّبات

الدهر . ولا شكّ ان القديس اوغسطينوس اسقف مدينة بونة في افريقية احد هؤلاء النوابغ فانّ فضائلهُ السامية ومآثرهُ العديدة وخدمهُ المشكورة للدين والدنيا معاً لا تزال موضوع الاعجاب والاندهاش لكل من يمعن فيها النظر . وقد كتب كثيرون في وصف سيرتهِ واعمالهِ . والكتاب الذي نحن بصددهِ يزيدنا بهِ معرفةً وهو لاحد الآباء اليسوعيين الاب كويليو الذي تعمّق في درس المجلّدات الضخمة المشتملة على تآليف القديس اوغسطينوس في كافة علوم زمانهِ الدينيّة والدنيويّة فاستخرج منها معلومات دقيقة سها عنها اصحاب السير القديمة ومن شأنها ان تمثّل لنا على احسن منوال نفس القديس اوغسطينوس وافكارهُ وعواطفهُ منذ اول حياتهِ قبل رجوعه الى الله حتى آخر انفاسهِ بعد ان اصبح كالسراج الموضوع فوق المنارة وصار العالم كلهُ يستضيء بانوارهِ الساطعة ويعتبرهُ كسند الكنيسة ومطرقة الهراطقة وافضل راعٍ لسياسة المؤمنين وادلّ دليل وأهدى مرشد للضالّين . ولعلّ اهل وطننا عرفوا شيئاً من ذلك بمطالعة ما عُرّب من كتاباتهِ كتأملاتهِ ومناجياتهِ لله واعترافاتهِ الّا انهم سوف يقتبسون ما يفوق على كل ذلك باستطلاع هذا السفر الجليل

الرحلة السوريّة في الحرب العموميّة سنة ١٩١٦

بقلم الخوري بطرس خويري

طُبع في مصر بعناية يوسف توما البستاني سنة ١٩٢١ (ص ٩٦)

ذكرنا سابقاً (ص ٧٢) قصّة الطبيب الطريد وما حدث لهُ من المصائب المتنوّعة اذ فرّ من ظلم الاتراك . ودونك كتاباً آخر ينبئنا بما دهم كاهناً شهماً قدّم نفسهُ في مصر ثاني سنة الحرب للمفوّضيّة الفرنسويّة البحريّة ليأتي لها بكل المعلومات عن احوال لبنان وسوريّة لتكون على أهبة احتلال البلاد . فتمكّن من النزول الى سواحل الشام وطاف في لبنان وجهات دمشق وحمص والبقاع حتّى احسّ بهِ العدوّ وترصّدهُ وكاد يذيقهُ مراراً سجال غضبهِ لولا ما اظهرهُ الكاهن من رباطة الجأش والصبر على البلايا حتّى تمكّن من ادراك غايتهِ وعاد سالماً الى مصر . ومع ثنائنا على نشاط هذا الكاهن وتفانيهِ في سبيل وطنهِ وجدنا في تعرّضهِ لهذه المخاطر ما لم يناسب كثيراً دعوتهُ الكهنوتيّة لتداخلهِ في السياسة كما انهُ كان الاحرى بهِ ان يتحاشى في روايتهِ بعض الاوصاف المخلّة بشرف الاكليروس ل . ش

غليوم الثاني امبراطور المانية السابق

بقلم كريم خليل ثابت

طُبع في مصر بعناية يوسف توما البستاني سنة ١٩٢١ (ص ٧٢)

انَّ حياة الامبراطور الالماني السابق غليوم الثاني اشبه برواية مفجعة ذات خمسة فصول كان ختامُها في آخر الحرب الكونيَّة حيث سقط ذلك الماهل عن مرتبتهِ بعد العظمة والجاه واصبح نسياً منسياً خامل الذكر بعد سقوط ستار المسرح. فهذه الرواية التامَّة الادوار يحسن الآن تفصيل تقلُّباتها لما بين اوائلها واواخرها من الروابط . وهذا ما سعى بهِ كريم افندي خليل ثابت بهذا الكتاب الذي جمع فيهِ ما يُعرف عن ذلك الرجل العظيم منذ اوائل حياتهِ الى ان تبوَّأ دست السلطنة فكادت الارض تهتزُّ لاوامرهِ حتَّى اضطرَّ اخيراً بعد إضرامهِ نار الحرب وخوضهِ معامعها الى ان يتنازل عن عرشهِ ويفرَّ هارباً بنفسهِ الى هولندة حيث لا يرى ولا يسمع الَّا من يُنحي اليهِ بالملامة لما اوقع في العالم من الشرور والآفات . فهذا الكتاب مع صغر حجمهِ من افضل ما تقرأهُ الناشئة لتقف على تدبير الخالق لامور العالم وملوكهِ ل . ش

كتاب الكتَّاب لابن دُرُستُوَيه

نشرهُ واضاف اليهِ الملحوظات والفهارس الاب ل . شيخو

طُبع في المطبعة الكاثوليكيَّة للآباء اليسوعيّين في بيروت سنة ١٩٢١ (ص١١٦)

هذا اثر قديم يرقى الى القرن الرابع للهجرة وضعهُ احد مشاهير اللغويين كان صبر على آفات الدهر فسلمت منهُ نسخة مصونة في مكتبة اوكسفرد الشرقيَّة كان استنسخها الحلبيّ الشهير المرحوم رزق الله حسُّون فوقعت نسختهُ في يدنا فنشرناها تباعاً في المشرق ثم طبعناها على حدة واضفنا اليها الملحوظات والفهارس تقريباً لاجتناء فوائدها . وما رآهُ منها القرَّاء في هذه المجلَّة يغنيهم عن وصفها وبيان خواصها .

تاريخ الفلسفة من اقدم عصورها الى الآن

تأليف حنَّا اسعد فهمي

نشر بعناية يوسف توما البستاني في مصر سنة ١٩٢١ (ص٣٥٦)

مؤلف هذا الكتاب «حائز دبلوم الليسانس في الحقوق في جامعة باريس» وذلك بما يوثقنا بمعارفهِ الفقهيَّة . وكنَّا وددنا لوضع تأليف مثل هذا ان يكون دكتوراً في

الفلسفة ليحسن انتقاد آراء الفلاسفة الذين يذكر تاريخهم ولولا ذلك لصار كتابهُ عثرةً للقرَّاء. وهم يرون كل ما خطر في عقول البشر من المزاعم الغريبة منها غثٌّ ومنها سمين بينها الباطل واليقين فلا يعرفون ان يميّزوا بين المتناقضات. وهذا اوَّل ما نأخذهُ على هذا التأليف انَّ صاحبهُ لم ينبّه القرَّاء على الاقلّ بكلمة انتقاديّة عن سخافة بعض آراء الاقدمين او سفاسف فلاسفة العصور المتأخرة المعادين للاديان كفولتير واصحابهِ وكالالمان البروتستانت والانكليز المادّيين . وقد ظهر لنا انَّ المؤلف قد ركن الى اقوال الفرنج دون ان يتحقّق صحّتها وقد نقل احكامهم حتّى في فلاسفة العرب ولم يطّلع هو عليها في مظانّها . وقد تأكّدنا مرارًا أنهُ لم يُحسن ادراك ما قرأهُ في الكتب الاوربيّة فعرّبها تعريبًا لا يوافق لمراد الكتبة وروى كثيرًا من الالفاظ الاجنبيّة بالغلط . ولولا ضيق المجال لاتّسعنا في بيان كلّ ذلك لا في صفحة واحدة بل في مقالة مشبعة وان شاء الله نفعل في فرصة اخرى ل. ش

مجلّات سوريا المرسلة الى المشرق بعد الحرب على حروف المعجم

رسالة السلام : مجلّة مارونيّة لبنانيّة نشرها في بيروت حضرة الخوري انطون عقل سنة ١٩١٩

رسالة قلب يسوع : ظهرت سنة ١٩٢٠ في مطبعتنا الكاثوليكية تحت ادارة احد الآباء اليسوعيين

زهرة الجبيل : مجلّة ادبيّة روائيّة اخلاقيّة تاريخيّة فكاهيّة يصدرها صاحبها جميل افندي البحري في حيفا منذ شهر ايّار ١٩٢١ مرّتين في الشهر

الشعلة : كان ظهورها في حلب في آب من العام الماضي وهي مجلّة ادبيّة فنيّة اقتصاديّة لصاحب امتيازها فتح الله افندي قسطون

الفجر : مجلّة نسائيّة اصدرتها الآنسة عفيفة ابي لمع في بيروت سنة ١٩١٩

الفوائد : مجلّة علميّة ادبيّة اقتصاديّة اخباريّة استأنف نشرها في نيسان الماضي صاحب جريدة الاحوال الفاضل في بيروت خليل افندي البدوي

مجلّة الرابطة الادبيّة : اصدرتها في ايلول الماضي جمعيّة الرابطة الادبيّة في دمشق

مجلّة العرفان : عادت الى الحياة بعد الحرب فدخلت في سنتها السادسة ثمّ السابعة ينشئها في صيداء حضرة الكاتب احمد افندي عارف الزين

مجلّة العلوم : ظهرت في تمّوز من العام المنصرم في دمشق لمنشئها ومديرها عبد اللطيف القلاعي

المجلّة القضائيّة : لصاحبها ومديرها يوسف افندي ابرهيم صادر ظهر اوّل اعدادها في نيسان الماضي في مطبعته العلميّة في بيروت

﴿ مجلّة المجمع العلمي العربي ﴾ : تصدر في دمشق الشام وينشئها نخبة من الادباء تحت نظارة مدير المعارف ورئيس المجمع العلمي العالم الفاضل محمد افندي كرد علي

﴿ المسرّة ﴾ : مجلّة بطريركيّة الروم الكاثوليك يديرها حضرة الآباء المرسلين البولسيين. تُطبع في حريصا (لبنان) . عادت الى الوجود بعد الحرب السنة ١٩٢٠

﴿ المعارف ﴾ : مجلّة شهريّة عامّة لصاحبها وديع افندي نقولا حنا . تُطبع في الشويفات دخلت في السنة الخامسة من عمرها

﴿ النجاح ﴾ : مجلّة علميّة ادبيّة تهذيبيّة تاريخيّة عموميّة تصدر في دمشق الشام منذ اوّل السنة الحاضرة اصاحب امتيازها الياس خليل ترتر ورئيس تحريرها فؤاد الخياط

شذرات

﴿ شهادة كاتب على زلازل صقليّة سنة ١٧٨٣ ﴾ ذكر التاريخ انّ زلازل هائلة دهمت بلاد صقليّة سنة ١٧٨٣ فالقت كثيرًا من مدنها بالدقعاء لاسيا حاضرتها مدينة مسّينة . وقد وجدنا في احد مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة وصفًا لهذه الكارثة حرّرها كاتبها عند بلوغ الخبر الى مسامعه فاحببنا نشره لئلّا تأخذه يد الضياع :

﴿ خبر الزلزلة التي جرت في كلابريه وفي جزيرة سيسيليا ﴾ «يوم الاربعاء في ٥ شباط سنة ١٧٨٣ في الساعة ١٩ (اي ٧ بعد الظهر) والدقيقة الخامسة احتملت كلابرية الواطية زلزلة رهيبة كانت متّجهة من الشرق الى الغرب ودامت نحو ٥ دقائق . ومن تلك الساعة السابعة مساء توالت الزلازل حتّى بلغت عدد ٣٢ هزّة ثمّ تعاظمت وازدادت . وفي اليومين التابعين اي الخميس والجمعة سُمعت اصوات مهولة وحدث في البحر والبرّ اضطراب عظيم مع سيول وامطار مخيفة وبروق ورعود عقبها ظلام مخيف

أمّا ما حدث من الخراب بسبب هذه الزلازل فلم نعرفها كلّها وانّما بلغنا في ١٥ شباط بانّ كلابرية الواطئة المشتملة على ٣٧٥ مدينة او قرية قد تلاشى منها ٣٢٠ . وانّ الامير دي كارياتي قد خسر ١٧ مدينة محصّنة من املاكه بينها المدينتان العظيمتان سينياره وبالمي حيث (كذا) لم يبقَ منها حجر على حجر . وامّا اميرة جيراكا الحاكمة على هذه المدينة فانّها اندفنت تحت الردم واستحالت مدينتها الى رماد بحريق اصابها بالزلزال وتلاشت كلّ املاك الاميرة . وكان الامير دي سيلا موجودًا في جيراكا لكنّهُ نجا بنفسه عند سقوطها فنزل في قارب في البحر . وقد خسر الملك

(فرديننـد) واكابر مملكتهِ وتجـار كلابرية كلّ املاكهم لأن وكلاءها هلكوا فبعضهم انطمُّوا تحت التراب وبعضهم استحالوا الى رماد بما حدث في مدينة مسّينة من الحريق فخسروا كلّ اجناس الارزاق الموجودة في المخازن التي اخربها البحر . امّا حصون كلابرية فانها تلفت وتلاشت . والجسر المشيَّد عليهِ البرج المدعو تاوُو غاص في البحر ولم يبقَ منهُ اثر . وكذلك مدينة ريجو (Reggio) الشهيرة اندثرت رسومها . وسقط قسمٌ من الجبل المسمَّى ليوني مع المكان المسمَّى بأنباره ولماكن اخرى عظيمة الشأن والغنى كلها فنيت وتلاشت

وكان لكلابرية نهر يُدعى بتراجا يحيط بها فغار بالكليَّة وكان لا يُقطع قبلًا الَّا بالقوارب فيقطعهُ الناس حاضرًا بالاقدام ولا يُعرَف حتَّى الآن اين تجري تلـك المياه الطامية ولعلّ ينابيعهُ قد انقطعت

وتنبئنا المكاتيب الواردة من ايطالية عن كثرة الذين ماتوا بسبب هذه الزلازل وتخبر بان الباقين في الحياة مشتتون في البراري لا يجدون شيئاً يقتاتون بهِ ولا ثياباً يلبسونها ولا نارًا يصطلون بها . امَّا جثث الموتى الذين نجوا من الحريق فقد دُفنت في البراري لعدم وجود كنائس وكهنة يصلُّون عليهم

وقد وصل في ١٦ شباط مركب الملك الذي كان في مسّينة وقت الزلزال فأخبر انَّ الجزء الاكبر من مدينة مسّينة قد اصبح خراباً وانَّ الجزء الآخر قد انخسف فابتلعتهُ الارض بفعل الزلازل المتواصلة طول الليلة الاولى حتَّى انهُ ما عاد بقي شيءٌ بالوجود الى حين سفر المركب الملوكيّ المذكور سوى بيت الكبوشيين وكنيسة المطهر وقد بلغ الذين ماتوا فيها ١٢٠٠ شخص . فما استطاع احد منهم على الفرار والذين حاولوا على النجاة استحالوا الى الرماد بالحريق . وبخصوص البضائع والارزاق التي كانت مسّينة غنيَّة بها فَفُقدت تماماً . ومن الترويبا لم يسلم سوى اربعين رجلًا . والاشراف هربوا الى المراكب الموجودة في الميناء فنجوا لكنَّهم عُراة من غير ثياب وقد اخبروا انهُ في الميناء وفي الحقول القريبة قد انفتحت عدَّة لغوم في بطن الارض

﴿ مضحكات المقتطف ﴾ يرينا كتبة هذه المجلَّة من تشبُّثهم بالآراء الدروينيَّة غرائب لا يمكننا اذا اطَّلعنا عليها ان نتمالك عن الضحك فنتعجَّب من عرضهم سخافات مثلها على قرَّائهم . فمن ذلك جوابهم على من سألهم (ص ٥٠٤ — ٥٠٥ من عدد

نوفبر) لأيّ سبب الملكة ماري انطوانت التي عُرفت وقت عزّها بجنّة طباعها اصبحت في سجنها ووقت محاكمتها دمثة الاخلاق رصينةً فاجابوا وفقاً لمبدأ دروين في الوراثة انّ هذا التغير • تعليلهُ الطبيعي انّ اسلافها الاقدمين كانوا قليلي التبصُّر مجازفين ثمّ تدمّثت اخلاقهم رويداً رويداً اماً بتبصُّرهم او بعامل آخر فورثت (اي ماري انطوانت) الميل الى الصفات الاولى والى الصفات الثانية وظهرت فيها اطوار الاوّلين والآخرين على التوالي لانها ورثت منهم الجراثيم التي تنوّعت بتغيير الاحوال مدّة سنين كثيرة فظهرت افعالها فيها متدرّجة • . فيا لله ألم يجد اصحاب المقتطف جواباً اقرب الى تعليل هذا التغير او ليس تغير الاحوال كافياً لذلك. ألسنا نرى كل يوم كيف تؤثر صروف الدهر في الطباع فتغيّرها بزمن قريب. وقُلْ مثل ذلك عن عوامل اخرى كتأثير الدين وزواجره وكأمثال عظماء الناس وروادع الضمير في قلب الانسان الخ الخ . وللمقتطف غير ذلك من الاجوبة على سؤالات يعرضها عليه بعض الادباء هيهات ان يقتنع بها السائل كنسبتهِ (ص٥٠٦) الى ناموس الرجوع الى الاصل ما عرضهُ عليهِ احد ادباء الفيوم . وكنسبتهِ الى الخداع او الى العصبيّة ما رُوي لهُ (ص ٤٩٠) عن تحريك الموائد وطرقاتها على حروف المعجم وعن ظواهر اخرى غريبة كما نكر سابقاً عجائب لورد التي ثبتت بشواهد مئين من الاطباء والعلماء وكلّ ذلك لأنها «لا تقطع عقلهُ». فاين هذا كلّهُ من العلم الصحيح !

﴿ اوسمة ممنوحة لآباء رسالتنا السوريّة ﴾ كانت الحرب الاخيرة مدعاةً الى اقرار رؤساء الدولة الافرنسيّة بفضل الاكليروس عموماً وبشهامة آباء رهبانيّتنا اليسوعيّة خصوصاً فانّ الذين ذهبوا ضحايا الواجب في ساحة الشرف بلغوا نحو المئتين . وكذلك عُدّت بالمئات الاوسمة الشرفيّة المختلفة التي نالوها من اركان الحرب . وقد نالت رسالتنا السوريّة حصّتها الطيّبة من هذه الامتيازات فمنحت الدولة عشرة منهم اوسمةً تنطق بتفانيهم في سبيل الوطن . وكان آخر من نال وسام جوقة الشرف من رتبة شفاليه الاب كونستانتن مدير الدروس في كليّتنا وقد جوزي بالوسام الحربي الاب جانيار رئيس ديرنا في غزير منحهما الوسامين فخامة الجنرال غورو بحفلة حافلة في ٥ من الشهر الماضي

أسئلة وأجوبة

س سأل من حلب احد كهنتها الافاضل . ١ً ما هي الصور التي ترسم بنوع احقّ وازيد تأثيرًا السيّد المسيح مصلوبًا ؟ . ٢ً ما هي صور درب الصليب التي ترسم لنا رسمًا ادقّ حقيقة ذلك الواقع ؟ . ٣ً هل الصلب كان يجري بالربط او بالمسامير ؟ . ٤ً وكيف كان ذلك يجلب الموت ؟ . ٥ً هل كفى كسر ساقي اللصين لموتهما ؟

ج نجيب على (الاوّل) انّ صور المصلوب لا ترقى الى زمن السيد المسيح . وقد اثبتنا في المشرق (٧ [١٩٠٤]: ٢٩٣–٣٠٢) اصل تلك الصور في الشرق . فلتراجع . امّا صور المصلوب المؤثّرة لحسن اتقانها فعديدة لا تُحصى . وقد رسمنا منها هناك صورة جميلة لاحد كبار المصوّرين . ومن الصور الاعظم تأثيرًا صورةٌ في دير الآباء الكبوشيين في رومية يقال عنها انّ الشيطان صوّرها سنة ١٦٩٥ لاحد عَبَدَتهِ اقترح عليهِ ذلك هذا الرجل الاثيم فاجاب الشيطان الى طلبتهِ مرغومًا . فلمّا رآها الرجل اثّرت فيهِ تأثيرًا عظيمًا حتّى تاب الى الله ولدينا منها نسخة . نجيب على (الثاني) انّ صور درب الصليب رسمها لاوّل مرّة راهب دومينيكي الطوباوي ألفار المتوفى سنة ١٤٢٠ بعد عودتهِ من زيارة الاراضي المقدّسة . وقد اختلفوا في عددها واشكالها الى أن ثبتت على صورتها الحاليّة في اواخر القرن السابع عشر وصورُها المؤثّرة عديدة جدًّا . نجيب على (الثالث) انّ الصّلب كان عند الرومان يصير على الصورتين امّا بربط اطراف المصلوب وامّا بتسميرهِ على الصليب . والسيّد المسيح كما يشهد الانجيل سُمّر عليهِ . نجيب على (الرابع) الصلب وحدهُ ما كان كافيًا لجلب الموت سريعًا . فمن المصلوبين من كان يعيش ايامًا على صليبهِ الّا انّ المصلوب كان يُجلَد قبل صلبهِ وكان يفقد بالجلد والتسمير قسمًا من دمهِ فيموت عاجلًا او آجلًا . وكان (خامسًا) كسر الساقين يقرّب ساعة موت المصلوب لكثرة نزف الدم

س وسأل حلبيّ آخر ما رأيُنا في قول كتبة العرب عن تشييد ابراهيم لمدينة حلب بعد احتلالهِ في ربوعها وحَلْبهِ قطعانهُ عندها

ابرهيم الخليل وتشييدهُ لمدينة حلب

ج ليس لهذا التقليد صحّة فانّ حلب اقدم من عهد ابراهيم راجع ما ورد في ذلك في المشرق (٢ [١٨٩٩] : ١٦–١٧) ل . ش